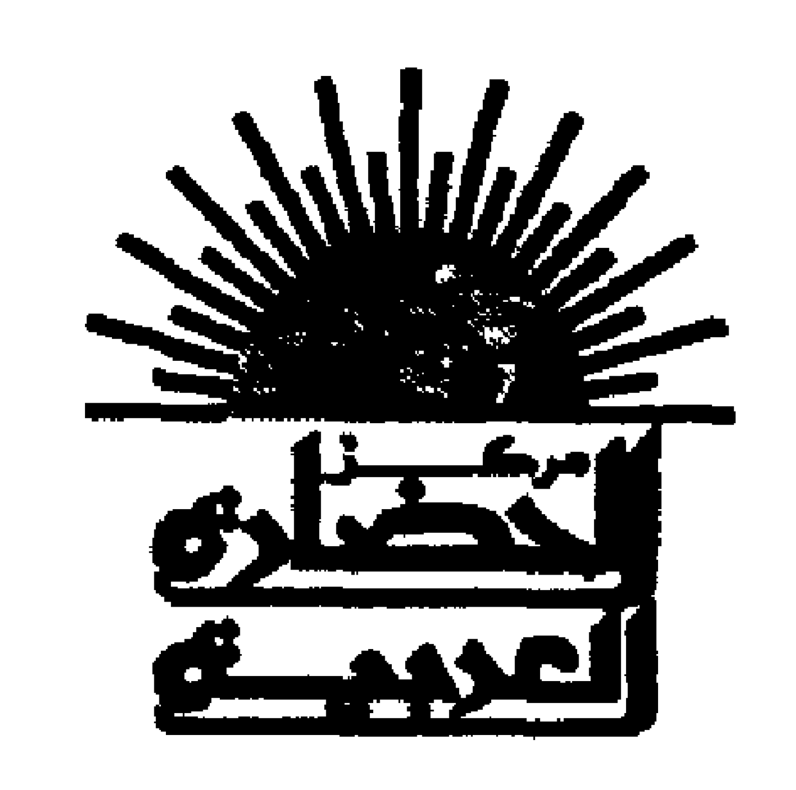

محمد جراح
الشونة
قصص قصيرة
مركز الحضارة العربية

الشونة



- مركز الحضارة العربية مؤسسة ثقافية مستقلة ، تستهدف المشاركة فى استنهاض وتأكيد الانتماء والوعى القومى العربى، فى إطار المشروع الحضارى العربى المستقل .
- يتطلع مركز الحضارة العربية إلى التعاون والتبادل الثقافى والعلمى مع مختلف المؤسسات الثقافية والعلمية ومراكز البحث والدراسات ، والتفاعل مع كل الرؤى والاجتهادات المختلفة
- يسعى المركز من أجل تشجيع إنتاج المفكرين والباحثين والكتاب العرب ، ونشره وتوزيعه .
- يرحب المركز بأية اقتراحات أو مساهمات إيجابية تساعد على تحقيق أهدافه .
- الآراء الواردة بالإصدارات تعبر عن آراء كاتبيها ، ولا تعبر بالضرورة عن آراء أو اتجاهات يتبناها مركز الحضارة العربية .

◆

مركز الحضارة العربية

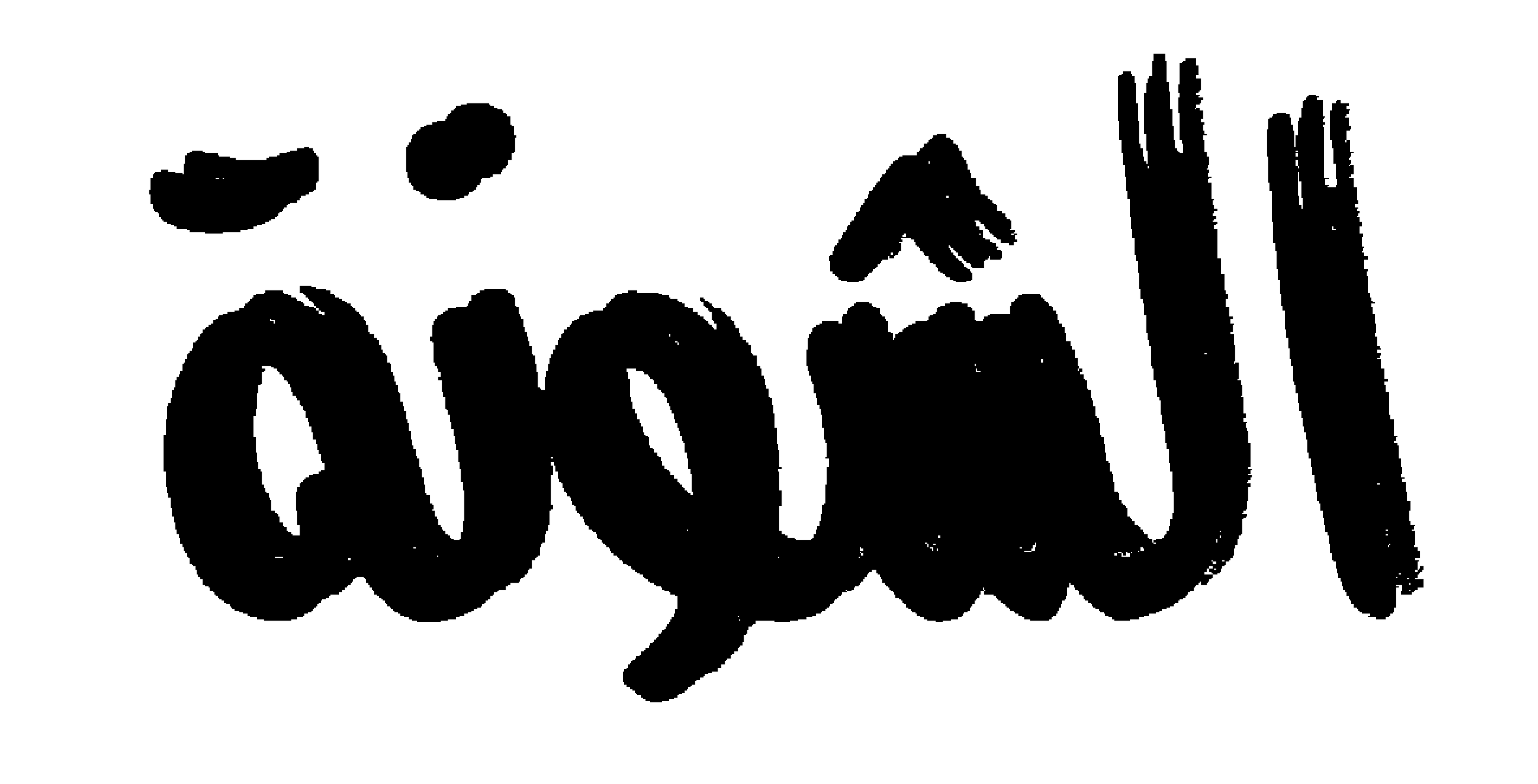
٤ ش العلمين - عمارات الأوقاف

ميدان الكيت كات - القاهرة

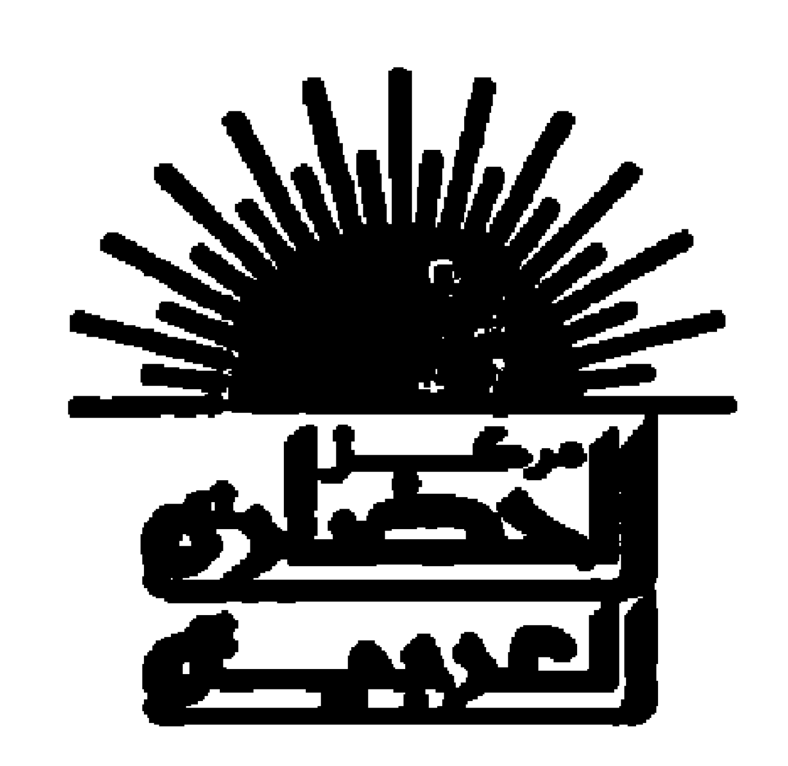
تليفاكس : 3448368 (00202)

E.mail: alhdara_alarabia@yahoo.com
alh alarabia@hotmail.com

محمد جرّاج



قصص قصيرة



الكتاب : الشـونـة
قصص قصيرة

الكاتب : محمد الجراح

الناشر : مركز الحضارة العربية

الطبعة العربية الأولى : القاهرة ٢٠٠٢

رقم الإيداع : ٢٠٠٢/١٢٥٦٩
الترقيم الدولى : I.S B.N.977-291-475-1

الغلاف
لوحة الغلاف للفنان : فان جوخ
تصميم وجرافيك : ناهد عبد الفتاح

الجمع والصف الالكترونى :
وحدة الكمبيوتر بالمركز
تنفيذ : عاطف فوزى
تصحيح : زكريا منتصر

الإهداء

إلى زمن الجمل الناقصة

محمد جناح

بسم الله الرحمن الرحيم

هذه هى مجموعتى القصصية الأولى، تتباين فى تواريخها العائد بعضها إلى أيام كنت لا أزال فيها طالبًا أحصّل الدرس، إلى أخرى سافرت للعمل خلالها خارج الوطن.

وقد قصدت فى اختيارها أن تلم كل هذه المدة الطويلة لتكون بمثابة تأريخ لفترة من رحلتى مع الكتابة ليس أكثر..

لقد عمدت ألا أُجمِّل لفظًا، أو أُغيِّر كلمة، أو أعيد صياغة، ليأتى كل نص كما كُتب فى زمنه الأول.

محمد جواد

الاحتواء التمايزى

نفس الرائحة تقريبًا حينما خرجت من القرية - على حين غرة من أصحابى بها - هى التى استقبلتنى بها المدينة غير مكترثة بى، ولا بأحلامى المكتوبة على جبينى، والتى أنّت منها مخيلتى، وفاضت بها صفحات ذاكرتى فسال مدادها بلونيه الأسود والأزرق.

تمنيتها مكتوبة بألوان كثيرة كألوان الطيف تزين جانب الفضاء، فلربما يكون لوقع الألوان أثر مغاير، لكن الأزرق - أيضًا - اتخذ من القتامة ما جعله قريبًا فى مظهره من الأسود..!، تأففت من هذا التشبيه، وذلك السير فى الركاب..، أف لك أيها الأزرق، كان من الممكن أن يكون وجهك بلون السماء..!

لكن ثمة فارقًا بين الرائحتين، عفن القرية كان بسيطًا، طازجًا، يسابق نسمات الفجر الباردة، فإذا ما أشرقت الشمس تبخر فى فضائها الرحب وامتصت بقاياه نباتات الحقول، أما عفن المدينة فقد كان مركبًا، معتقًا، ينضح من كل معالمها وجزئياتها!! كان معى أينما حللت أو نزلت!

قال أحدهم لما رآنى متأففًا: ستتعود الرائحة. أضاف: ولن يستطيع أن يميزها أنفك بعد اليوم! سخرت منه ومما ذهب إليه وأنا أتذكر قولاً طالما لاحقتنى به أمى وأنا صغير حينما كنت أجهز على أكياس الفاكهة مهما تفننت هى فى إخفائها: «هو

أنت عامل زى الـ... ما فيش حاجة تخفى عليك؟!»

تحديته. قلت له: من الممكن أن أتعود وجود الرائحة، لكننى سأظل أبدًا أشمها، أحسها! ضحك بهدوء ثم قال: كلنا قلنا فى البداية هكذا، سوف تزكم روائح كثيرة أنفك، وسوف تتعودها أنت ولن تشعر بها، سوف تتشبع بها ولن تعود تحس بوجودها، وعندئذ سوف تختلط عليك أشياء، وتتوارى عنك أخرى، سوف تختلط عليك الرؤى، فإذا لم تتمالك نفسك فلربما عشت التيه فى البيداء.

***

اليوم يا صديقى هأنذا قد بلغت نهاية الطريق، فلماذا تصفع أذنى بكلمة واهم، إننى يقظ، فطن لكل ما يدور حولى، فلماذا تضحك منى ساخرًا وتصفنى بأننى كنت غافلاً؟!

لقد روضتها، وأحكمت قبضتى على لجامها..!

ألا تصدقنى..؟!

رأى هندامى وقدمى قائلاً: ألم أقل لك من قبل إنك لن تستطيع معها صبرًا؟!

يا هذا تستر، وانتعل حذاء، ألا يؤلمك قيظ «الأسفلت» فى هذا الشارع من هذه المدينة؟!!

---

* نشرت بجريدة عكاظ السعودية بتاريخ ١٩٩٧/٥/٢٩م

انكفاء الموج

تتابعت انكفاءات الموج. كل قرين يغالب قرينه حتى إذا ما سار قليلاً أتت أخرى لتعلن هزيمة أختها وانتهاء أجلها!

لم يجد هدير الموج، ولا ارتطام المياه بصخور الشاطئ فى إنزاله من فضاءات خيالاته، ولا آفاق تحليقه. عندما ارتخت عيناه لأسفل قليلاً، رأى الماء يسير من تحته سريعًا .. بموجه، وانكفاءاته، وارتطام مائه بصخور الشاطئ الخضراء..

بأصداء متناغمة ترددت عبر فضاءات الماء الممتدة بلا نهاية ترانيم النورس، وأناشيد طيور بحرية أخرى. ولما بدأ يفيق من تفكيره تسربت إلى أذنيه أصوات الطيور مصحوبة بخلفيات الماء الهادر، والموج المتسابق للموت تحت أقدام الصخور.

تزايدت حدة الأصوات فى أذنيه، هب من جلسته واقفًا، جابت عيناه الشاطئ الطويل يمنه ويسرة.. كان وحيدًا إلا من أنوار بعيدة كانت تعكسها مياه البحر المالحة.

غلبت عليه انكفاءات تفكيره، وانزلاقاته فى مشوار الحياة. كان يحس «الدرن» يلفه من كل اتجاه ويسيطر على مركز تفكيره كأنما ما اقترفه قد التصق بجلده وتعلق به تعلق البقايا بالثوب الأبيض.

كان لابد لتلك البقع ولتلك البقايا أن تزال.. لما حمله الموج معه وحاولت متتابعاته الانقضاض عليه كان قد اغتسل واعتلى ظهر الموج مروضًا ماهرًا كطفل صغير أحس بالسعادة وبدأ

يشعر بالفرح.. كاد قلبه ينخلع طربًا من بين ضلوعه.

شئ ما تسرب داخله وجعله يحس بهذه النشوة وتلك السعادة.. ارتمت عنه كل همومه، وابتعلها اليم.

فى الأفق القريب رددت جنبات البحر صوت آذان الفجر مختلطًا بأصوات طيور النورس وطيور أخرى لا يعرفها.. خرج من الماء تلسعه نسمة الفجر الباردة.. كانت برودة يألفها أحس معها بالسعادة وبذكريات الصبا التى يحبها.. أدرك أن يومًا جديدًا قد بدأ.. وأن عليه أن يلحق بالصلاة.

* نشرت بجريدة الرياض السعودية بتاريخ ١٩٩٥/٧/٢٧م .

قرار تنكيس

تتكسر صورته على الماء، ما عاد مكتملاً فى فضائه، شاخت أشعته! تتجرأ عليه سحابات تحكم الخناق عليه، يعاود الإفلات منها، أو تغادره هى طواعية..!، لكن صورته المهزوزة تظل طافية على الأسطح الجارية أو الآسنة!!

تتكسف لما لحق به، تترك نفسها لهواها فتفعل بها السحب ما فعلته بأخيها، تطل مرة، وتغيب مرات.

تهب من الصحراء رياح عطنة صفراء تملأ الأجواء غبارًا، كرغيف عفن أو قطعة نقود صدأة تطل واهنة على استحياء!

الليلة يكتمل..

فتشت عنه يوم هبطنا قريتنا... بدا سواد الليل باهتًا تحت وطأة الكهرباء والغبار.

فى خلفية جلستهم ذلك الجهاز الذى يكتم أصواتهم ويحرك غرائزهم بصوره وإعلاناته المتلاحقة.

يتبادلان القراءة.. يضيع صوتاهما وسط الضجيج: مقاومة.. قصف.. قتل.. دك، فإلى رسالة مراسلنا هناك.

يعلو الضجيج، أنصت باهتمام، تتعالى من حولى الضحكات، بأداء تمثيلى يقرأ، وبصعوبة أسمع.. «العراق يشكو استفزاز الكويت للأمم المتحدة».

التقط منها عنوان خبرها: أمريكا تؤكد امتلاك أسامة بن لادن لأسلحة نووية!

يعود فيقول: آمريكا ماضية فى تنفيذ خطتها فى الاحتواء المزدوج، ويبتسم ابتسامة قبل الختام قائلاً: إسرائيل مصرة على إسقاط عرفات، تبتسم هى الأخرى، والآن نصل إلى فقرتنا الرياضية، يطل المعلق بشاربه الكث، وبابتسامة تكاد تشق زجاج الشاشة: طاب مساؤكم.. «الزمالك يواصل هوايته فى إصابة جماهيره بالاكتئاب». ينتبهون، يقوم أحدهم يغير القناة: حان وقت المسلسل العربى، يصيح آخر فيه، انقل للأخرى.. هذا وقت الإعلانات وبعدها الحلقة الجديدة من المسلسل الأمريكى.

تلاطفه إحداهن بكلمات تخدش الحياء، يخرج الكلام من أذنيه دونما صدى.

كالعاصفة ترجه أصواتهم، تستعرض أخرى مفاتنها أمامه، يشعل سيجارة، يغلق الملف، يرمى به، يهب خارجًا على إيقاع ضحكاتهن، لا يعرف إلى أين؟!

صورة قديمة أستطيع الآن تفسيرها..

كانت بداية التقهقر.. لم تكون قوامة، ولا حتى نوعًا من السيطرة.. نعم أستطيع الآن التأكيد على ذلك، عندما تبدل موقع أبى إلى الداخل، واحتلت أمى مقدمة السرير!

هأنذا قد قبضت عليك أيتها الجملة الملعونة..! بالفعل «نحن أمة تعشق الكم، وتهزأ بالكيف».

تعالى أيتها الأخرى «الكتاب جميعهم مرضى نفسيون» نعم.. أستطيع أن أجزم بذلك أيضًا!

يتكاثر الذباب على حافة كوبه، اثنان التصقا وفى لحظة النشوة سقطا، بصق، وأطاح بالكوب! كان الاعتلاء مشهدًا جديداً، الديك يواقع البطة؟! فهم المعنى يومها، وقبل أن يشوطه

كان قد طار من فوقها مرسلاً صيحات مقتضبة فسرها هو على أنها سب فيه، فأصر على إهانته ملاحقًا إياه وسط دهشة من رأوه بالحارة.

صدر اليوم قرار التكيس..

لابد من الإخلاء؟!

تركت الغرفة لمالكة البيت، هبط الجميع بمتاعه إلا أنا، هائمًا أسير، لا رفيق لى بالمدينة.

لو كنت قد جاريت إحداهن؟!

قريتى بعيدة.. لو كان عملى هناك؟!

كاللص أتسلل بين الشوارع والحوارى، مهما حدث سأبيت هناك.

يسبنى طفل لا يعرفنى ولا أعرفه، أطارده كالفأر، يعدو، تبلعه الأزقة والحوارى..

أعود..

أستلم الحارة.

أصل إلى حيث اعتادت قدماى. كومة.. نام المنزل، ومن حوله يرقد بيتان.

---

* نشرت بجريدة الجمهورية - القاهرة بتاريخ ٢٠٠٢/١/٣م .



الطاعن والمطعون

سددها له بيمينه عندما فرغ من تمتماته وهم بالسجود. انفجرت ينابيع دم أحمر فاقع، جاب صوته أرجاء المعبد الكبير ذى الأعمدة الجرانيتية الوردية الضخمة. والنقوش المحفورة والبارزة التى يحكى بعضها شيئًا من تاريخ بعيد. وتضم الأخرى نصوص تعبد ودعوات.

أصاب التابعين الذهول.

فسدت الصلاة.. قالها أحدهم.. رمقه آخر بنظرة ازدراء.. تخبطت أرجل الرجل الذى سدد فى صفوف التابعين محاولاً الخروج بلا اكتراث، انحشر جسده بين أجساد بعضهم، رسم على ملامحه خوفًا مصطنعًا.

لما علم من بالخلف بالذى حدث فى الأمام، طوقوا ذلك الذى يحاول الخروج وهو مازال قابضًا على ملامح خوفه المصطنع.

طالت سجدة «الكاهن» حتى ظن من حوله أنه قُبض، لكنه فاجأ الجميع بوقوفه والخنجر مازال مستلاً فى ظهره والدم يصنع فى قميصه بقعة تشبه قرص الشمس عند الغسق.

مد الكاهن يسراه للخلف.. قبض على الخنجر الذى مازال مستقرًا فى ظهره.. انتزعه وسط تأوهات غريبة على جمع التابعين.

لما عادت يده بالخنجر إلى الأمام، نظر إليه بكلتا عينيه وسط همهمات من حوله.. تمتم بكلمات ثم رمى بالسكين أمام قدس الأقداس.

قال أحدهم: نطلب الحرس.

رد آخر: بل نحاول إسعافه أولاً.

صاح ثالث: حياة الكاهن فى خطر، هلموا بحمله للخارج.

زعق آخرون: قبضنا عليه.

مازال الكاهن واقفًا ضاغطًا بيده اليسرى المخضبة باللون الأحمر على مكان الطعنة. تحدث فسكت الجميع، وجه خطابه إلى الطاعن:

- لِمَ فعلت فعلتك يا هذا..؟ ما بالك جاحدًا..؟ هل آذيتك؟ هل بينك وبينى ثأر لا أعلمه؟

أطرق الطاعن، لم يكن لبنت شفة أن تخرج من فيه!

صاح فيه:

- إن كانوا قد أرسلوك لقتلى فعد إليهم وقل لهم: «الكاهن الأكبر لا يقتله خنجر، ولا تذهب بحياته سكين».

واصل: كم دفعوا لك؟ وبماذا أغروك؟

صاح أحدهم:

- من هم أيها الكاهن الأكبر؟ هل لقداستك أن تخبرنا بما لا نعلمه؟ من هؤلاء الذين دفعوا له ثم دفعوا به إليك وأنت هنا فى قدس الأقداس؟

لم يجبه، لكنه واصل كلامه للطاعن بصوت أجش يغلفه الهدوء الواثق والطمأنينة الزائدة وسط ذهول الملتفين من حوله:

- سأخلى سبيلك لتكون لمن بعدك آية.

- (!!)

لكنك لو عاودتها لن تكون كما أنت الآن، فقط عُد إليهم، ولا تدخل علينا حتى يعود إليك رشدك وتكون من التائبين.

لما صاحوا فيه أمرهم بالسكوت، ولما دخل الجند أشار عليهم بالصلاة والسجود. فلما أمسكوا بتلابيب الطاعن قال الكاهن لهم: رسالتكم وصلت وأنتم الأخسرون، خلوا عنكم. لقد صفحت عنه، وكفاكم ما كنتم تعملون.

لما أصر الجند على اصطحاب الطاعن والمطعون، صاح المطعون فيهم، وتبعه الذين عندهم شيء من العلم.

لما جذبوه.. نزلت يده من على ظهره في اللحظة التي دخل فيها طبيب القصر ومساعدوه الذين أصروا على كشف الجرح فأصر على الرفض وأصروا.

لما بطحه الحرس أرضًا حدثت اشتباكات بين الجند والتابعين وعندما كشف المسعفون ظهره كانت المفاجأة للجميع لم تكن إصابة قط بظهره، هتف التابعون وصاحوا في الجند المذهولين.

قال من بالمعبد: إنها معجزة أن ينفجر الدم ويلتئم الجرح وكأنه لم يكن.

هتفوا.. هللوا.. علت صيحاتهم التي رددتها جنبات المعبد الفسيح، لكن المسعفون قطعوا عليهم صيحاتهم عندما أخرجوا كيسًا قماشيًا به بقايا دم من بين ملابس المطروح أرضًا.

نظر الجند للطاعن فأشار إلى المطعون.

لكن الأتباع أبوا أن يصدقوا، علت الصيحات والهتافات، وسادت الفوضى والاشتباكات، وكان الذين عندهم شيء من العلم قد أتموا خروجهم وأقلوا إلى بيوتهم عائدين.

خطوط متشابكة

كانت الشمس قد خلعت كل أثوابها وتوسطت كبد السماء، مرسلة نيران أغسطس ملهبة كل الأبدان، فجف الماء فى الجداول، وأصيب الزرع بإعياء شديد وبدت الأرض وكأنها قد خلت من معمريها الذين ذهبوا يلتمسون النجاة، بينما المداخن تحجز عباب السماء، مفرزة دخانًا حاول أن يخبئ شمسًا فاستدرجته بخداعها وأساليبها الملتوية فاتحد معها ضد من أقامه، وثمة آلات تهدد السكون، منتجة أصوات الضجيج، فتتفزز منها الأسماع فلا ترد إلا بأوجاع فوق أوجاع..

عند ذلك اعتلت الرمال الممتدة أنسية.. بخطوات متثاقلة وجوف بارز للأمام..

فلم تكد حتى ارتمت فوق كومات الرمال التى كانت الشمس قد أعيتها منذ زمان بعيد فلم تتركها إلا جسدًا ملهب الظهر، فى طريقه لمغادرة الحياة، وبينما الموقف كذلك، خرجت أصوات صراخ إنسى صغير، مخنوقة وسط الظروف المحيطة، خرج المولود إلى الحياة..

خرج إلى الحياة، وفارقها من وضعته، ماتت قبل أن تراه، وأتى قبل أن يرتوى من حنانها..

لم تمض لحظات حتى انتصب طوله، وكأنما الطبيعة قد أرادت أن تحتفل بقدومه فأرسلت قاذفات الهواء البارد، فطارت من تحته الرمال، وسكنت الأتربة الفضاء، وطارت من فوق

رأسه شعيرات كان قد خرج بها إلى الحياة فأصبحت رأسه فى لون جسده..

خاف - جرى - أسرع - اعتلى شجرة يطلب الحماية - لفظته من فوقها، احتمى بجدار منزل ما لبث أن تهاوى..

جرى - أسرع - احتمى بالآلة - فرحت بقدومه.. رحبت به - فتحت له صدرها - ضمته بقوة - لفته بذراعيها، فافترش جوفها، لم يخرج الأنسى.. بينما استمرت الآلة فى إرسال أصوات الضجيج.

---

* نشرت بمجلة ملامح الأدبية ديسمبر ١٩٨٤م .

سقط سهواً

* كانت «أم كلثوم» تغنى..

وكان المساء قد أذن فى الدخول.

كان الفصل صيفاً، فتسمرت فى فروعها الأغصان..!

قالت: «أستشف الوجد فى صوتك». تحسست عنقى، وانطبقت يداى على حنجرتى.

خرج صوت غريب مشوش، لم أفهم ما قلت إلا تلكم الآهات المنتحبة التى ترددت داخلى مع صوتها.

تحركت داخل قميصى الملتصق عشقاً بجسدى الضان بحبات العرق، وغفوت سائراً..!!

* منذ متى لم يصافح أذنى صوتها..؟

ومنذ متى غُيبت عنى صورتها..؟

.. ومنذ متى بكيتها..؟

.. كان يوم زفتها إلى الطائرة التى أقلتها إلى حيث يعمل من دفع فيها مهرها وكبح لها طمع أهلها،.. وأرضى دلالها.

* تضورت جوعاً وأنا أجوب الشوارع لا ألوى على شىء.

كنت أسمع نفسى تحادثنى، وكانت تسمعنى فى حديثى لها..!

بين الحين وقرينه كنت أفيق على ارتطام بجدار، أو اصطدام بوجه آدمى عابس أو متقزز أو مشفق.. أو مستهزئ، فلا أكاد أعتدل حتى أنزلق من «الرصيف» فتصعق أذنى أبواق المركبات الحاجبة لاسوداد الطريق التى يأن غرورها وعنجهيتها..!

كنت أحملق فيها فلا تجيبنى، وأسير فى اتجاه إحداها فتزاحمنى قرينة لها فتعود الأبواق لتعلو فلا أستيقظ إلا وأنا جالس بين أقدام المارة.

* منذ أن فشلت فى تدبير ثمن بنطلون وقميص جديدين تغيبت عن العمل الذى كنت قد نجحت بمساعدات «وضيعة» فى الالتحاق به، كانت واسطتى عامل البوفيه فى الإدارة الذى هو صاحب القهوة فى المساء..!

لم يزرنى أحد..

لم يحزن لغيابى زميل.. هكذا أيقنت.

اضطررت تحت وطأة القهر النفسى إلى الخروج بملابسى البالية، لم يكن أمامى إلا «المقهى» والشرود وسط صيحات ونقاش ومفارقات الجالسين.

* حاولت أن لا أقف عندما قصدنى، لكننى رغمًا عنى وقفت فبانت له سوءات هندامى الذى حاولت قاصدًا عن غيره، وعنه أن أخفيه.

تخمرت ملامحى عرقًا.. أطرقت فانصرف إلى الخارج فعاودت الجلوس.

* وضع «صبيه» شايًا أمامى أشتهيه، ولم أطلبه..!! تحسست أنات جوفى الفارغ من كل الزاد.. لكننى تماسكت فى الكرسى المتماوج بجسدى هذا الذى يريد أن يفضحنى!

* لما عاد قصدنى ثانية، تماسكت، عزمت الا أقف لمقدمه.. دفع «بكيس». بلاستيكى فوقع ما بداخله أمامى، رغمًا عنى وقفت..

قلت له: كيف تجرأت.. لكننى بلعت بقية كلامى فى جوفى الفارغ ورميت له بنطلونه وقميصه داخل كيسه واندفعت إلى الشارع من جديد..

---

* نشرت بجريدة الرياض السعودية بتاريخ ١٩٩٧/٥/١م .

الموتور

لم تكن هى المرة الأولى التى أمتطيها، أشد سرجها قليلاً وأرخيه كثيرًا.. طويلة هى المسافات، وكثيرة هى المدن والغابات التى ارتدناها سويًا، وجبناها بمفردينا، وفى قلة من المرات ببعض من الرفاق.

كانت صديقتى، والوحيدة التى لا ترد لى طلبًا أو تعصى لى أمرًا..!

فى أحيان كان يزعجنى صمتها وتغيظنى آليتها، كنت أريدها لو تشاركنى الحديث.. لكن ماذا كنت أنتظر من آلة! وهل كانت فعلاً سترد على..؟!

لو قدر لها أن تقول لقالت الكثير..

آه.. ما أجمل سكوتها..! وما أحلى صمتها..! إنها لو قالت لفضحتنى، ولعرت جوانب القصور فى شخصى..

ليتها كانت قد تحدثت.. ما أطاعتنى وتوقفت.. لقد زرع صمتها فىَّ الغرور، وأنبتت استجابتها فىَّ التعالى، كنت أنتفخ كبرياء على مقودها، وأحس الخيلاء وأنا أطوى بها قريناتها التى لم أكن لأرضى أن تلحق واحدة منهن بى وبها..! وعبرت بصمتها مرحلة الكلام إلى مرحلة الفعل.

عندما انطلقنا أنا ومجموعة الأصحاب كل بسيارته قلت هاتوا برهانكم.. فانطلقوا وانطلقت خلفهم.. حاولوا كثيرًا ألا أمر بينهم فانتفخ الدم فى عروقى، ونفثت غيظى على دواسة

وقودها وأعلنت التحدى من على مقودها.

وأحسست بها وهى تتشكل بملامح وجهى، ورأيتها وهى تفغر فاها، وقبلت معى التحدى، واستطعنا طيهم جميعًا.. أجلت ابتهاجى بها إلى حين انتهائى من هؤلاء المطاردين.

عندما انفتح أمامى الطريق رأيت الفضاء قريبًا، واللون الأزرق يعانق الأصفر سعيدًا.. حاولت اللحاق بالطرف الآخر من السماء.. بين الحين والآخر كنت أختلس النظر فى عواكسها.. لأرى إلى أى حد وصل الرفاق.. شيئًا فشيئًا اختفوا جميعًا، وبدا الطريق خلفى يتلوى نظيفًا منهم.

بعدت النقطة التى ظننتها آخر السماء.. شيئًا فشيئًا لاحت لى من بعيد أشباح بيوت وعمائر، كنت لا أزال على حالتى، ولا تزال هى تئن من قدمى الضاغطة بقوة متغطرسة على دواستها..

جن عقلى عندما رأيت نظيرة لها أمامى. حاولت طيها كسابقاتها لكن محاولاتى ذهبت سدى.. أعلنت التحدى دون إنذارها، حينما اقتربت منها كانت أسراب كثيرة من السيارات تمر فى الاتجاه المعاكس، وكلما هممت بتخطيها عدت للسير خلف غريمتى.

تضجرت، نفثت الهواء من فمى زفيرًا ملتهبًا، لكن السرعة الثابتة الرتيبة أجبرتنى على الشرود.. عندما ارتعشت مخيلتى خشية فشل خطتى، واحتمال أن يلحق بى الرفاق ضغطت الدواسة بكل قوتى حتى التصقت قدمى بأرضية هيكلها، اندفعت سيارتى كالمارد، فانفرجت أمامى مساحة حسبتها ستكفى مرورنا عندما ينتبه ذلك الذى يسير أمامى ويقع الرعب

فى قلبه خوفًا منى ومن سيارتى.

عندما أدركت تلك المساحة، وانفرجت لى بعض تفاصيلها، واجهنى غول فى هيئة شاحنة..!

أفقت على صوت ارتطام شديد وتمزيق الحديد للحديد..

عندما جاء الرفاق للاطمئنان على سلامتى صحت فى وجوههم.

- لم ولن تسبقونى..

واصلت: فى المرة القادمة..

لكننى نظرت إلى أطرافى ولم أستطع التكملة!!

---

* نشرت بجريدة البلاد السعودية بتاريخ ١٩٩٦/٥/٤م

بلقيس

قالها فى وجهى مغلبًا على وجهه علامات الابتسام:

ألم يمنعكن نبى الله «سليمان بن داود» من الظهور نهارًا؟

فتشت فى نفسى عن صدى لكلمته فلم أجد أثرًا لما نعتنى به من صفات.

واصلت سيرى غير مكترثة به وبمزاحه الثقيل ثقل «زير الماء» الفخارى الرابض خلف باب الدار، لكنه عاد ليصفع أذنى بها وبشبيهات لها من وضيع القول.

عندها توقفت، صوبت سهام عينىَّ على قسماته الباهتة. تضاحك.. ثم تلعثم، وتحرك فى جلسته فانحبس داخل جوفه باقى الكلام!

بإشارة منى تسمر معتدلاً فى جلسته!

قلت: أقرأ ما يدور بداخلك، فإن نويتها فألف مبروك.

اندفع كطفل ملهوف قائلاً: وستظلين مع ذلك زوجتى فأنت أم أبنائى وأول فرحتى..!!

قلت: أظن أنه من الأفضل أن نفترق بالمعروف.

---

* جبال فيفا - جيزار - السعودية ١٩٩٦م .

الصندوق

انطفأت الشمعة الوحيدة فأطبق ظلام دامس ظل يحاربها بأسلحته الفتاكة وهى تجاهده بكل ما أوتيت من لهب.

كانت قوى مجتمعة وهى وحيدة، فكيف لضعف أن يجاهد قوة، وكيف لها أن تحارب جيشًا مجهزًا..؟!

كانت رفيقة الصبا وزميلة الدراسة حتى تفرقا على أعتاب الدراسة الجامعية، اختصرت هى المشوار، وظن هو بتشجيعها أنه مواصل فلحق قطار الجامعة محشورًا بين آلاف كثيرة حتى قذفه «التنسيق» على دراسة ما لا يحب ولا يهوى!

كانت نقطة جذب ومحط أنظار، وكان هو قطرة فى بحر فغشاه موج شل حركته، يعلوه موج أطبق عليه، فظل يصارع الأنواء بلا مجاديف.

لم يكن ليقوى أمام هذا الطوفان..

لم تعد الدراسة كما كانت فى المدرسة..

لم يعد الزملاء كما كانوا فى القرية..

حتى الناس ليسوا كما فى بلدته!

كان يعلم ذلك جيدًا، لكنه لم يكن يعلم أن الحياة من الممكن أن تكون بهذه القسوة وتلكم الضراوة..!

فشل..

وفشل حتى فى إقامة علاقات سطحية..!

وحيدًا ظل..

لم يكن هندامه ولا مظهره العام ليعطياه الثقة التى حاول زرعها فى نفسه، ولا ليعبرا به شتاته وانكساره.

حاول طرد اليأس بعيدًا، لكن الفئوس صارت أسلحة «أوتوماتيكية»، فإذا كان قد صمد فى وجه فأس، فكيف له وهذه الأسلحة الحديثة.

القرار الوحيد الذى استطاع اتخاذه وسط هذا المعترك الذى يحياه هو الانسحاب والعودة.

أن ينسحب ويعود...!

لا مجال لتعبئة، ولا رجاء فى مناورة.

سيقولون فيه كثيرًا، وسيشهق فى كلامهم زفيرًا، لكن لابد من العودة!

كيف العيش وهو لا يملك أدنى مقوماته، فإذا كان الشقاء نصيبه فليحياه قريبًا ممن سيخففون - ولو كلامًا - عنه!

الفأس هى ماله وسلاحه.. فُرضت عليه صداقتها..! يدها تعرف كفيه، ويداه تحفظ مقاسها... تمنى كثيرًا وهو يهوى بها ويدمى الأرض بسلاحها أن تكشف له عن ذلك الصندوق.. الكنز.. عن مال كثير طالما تمناه وبنى قصورًا مع حكاياته، لكنها لم تكن لتصطدم إلا بالحشائش، ونباتات طفيلية كثيرة لا تنتهى.

عاد إليها..

الوصول إليها شاق، والحديث معها صعب.

كان يعلم حبها له، وكانت تحيط بفقره المدقع.

أرادت أن تدفعه للحصول على شهادة حتى تستطيع أن تقف فى خندقه وتواجه به أهلها، لكنه خيَّب ظنها، وعاد أدراجه يجر ذيول الهزيمة والانكسار.

حاول تبرير قراره بالعودة لكنها لم تقتنع..

- «غيرك كانت لهم نفس الظروف وربما أصعب لكنهم عادوا منتصرين».

قال: «القياس الآن مختلف، والحياة تعقدت..»

واصل: «زمـاننا ليس الزمـان الماضى»، لكن لم يعلق أى من كلامه ولو بسياج أذنيها.

ثار أبوه فى وجـهـه: «أترانا ونحن هكذا أجـراء، وتفكر فى الزواج..؟ وممن..؟ من ابنة كبير البلدة؟»

عبثًا حاول معه لكنه صده ونصحه بأن يصرف تفكيره إلى أشياء أخرى.. إلى فأسه.. «التى لو استراحت لمتنا جوعًا»!

واصل: «يكفيك ما كلفتنا فى رحلة الفشل».

لما طرده العمدة من دواره، ودفعه «شيخ الخفراء» بقدمه، وأكمل «خفير» الباب إكرامه على «قفاه» حزم أمره، وقرر ألا يعيش فيها تلك البلدة التى أبدلت وجهها فى وجهه الكسير.

سافر..

حملوه سلاحًا وحارب..

المال قضيته، لماذا يحارب لا يهم، لمن يحارب أيضًا لا يهم..! مع من، أو ضد من.. لا يهم!!

للمرة الأولى يشعر بأن لمجهوده مقابلاً يرضيه، ويدخل البهجة إلى قلبه التائه.

لم يصدق أن الحرب بعد كل هذه السنوات قد انتهت وأن باستطاعته بعدما أفلت من الموت مرارًا أن يعود!

- «أتراها كما هى؟!»

«من المؤكد أنها تزوجت؟!»

«هل تنتظره؟!»

عزم.. حزم.. لكنهم أمسكوا بتلابيبه!

صاح فيهم فأغروه..

سبهم فأغدقوا عليه!

حاول الفرار.. فقتلوه.!

***

هد موكبها انتظام مشيعيه، فاصطفوا بنعشه على جانبى الطريق..

زغاريد عالية، وغناء بهيج، حتى إذا ما تباعد الموكب عادوا للمسير.

أزاحوا غطاء الصندوق، أنزلوه، أهالوا عليه التراب، صرخت أمه فابتلع صراخها فضاء المقابر، حتى إذا ما عاودت الصراخ لطمها أبوه فتحجر الدمع فى مآقيها، وانحبس الصوت فى فيها فانمحت الذاكرة بكل ما فيها، وما عادت تدرى: لِمَ هى هنا، وماذا كانوا هم يفعلون.

---

* نشرت بجريدة الجزيرة - السعودية ١٩٩٦م .

اللبلاب

أصل الحكاية:

لأن يقرر أخى الأكبر فهذا شىء لا أنكره عليه ما دام قراره فيما له وحده غير جائر على حقى فى شىء!، لكن أن يأتى مُصادرًا حقى وحقهم وينفرد هو بالقرار، فهذا ما لم أوافقه عليه، وهو ما جعلنى لا أسكت وأجاهده بكل ما أوتيت، لكنهم آثروا الصمت وخذلونى...، حتى أبواى لم ينصفانى.

وحدوا الله

تلكم قصة طويلة.. قيَّمه والدنا علينا ولم يبرأ أبى من مرضه.

أمى كدأبنا بها مع أبى من قبل استسلمت لأخى رغم وقوفها أحيانًا فى وجوهنا نحن الأدنى.!

غريبة كانت تصرفاتها.. تبدو كمن استبدلت قائدًا بآخر.. أو ربانًا بربان..!

ولاؤها للقائد المتمثل فيه، خُيِّل إلىّ أنه يفوق انتماءها إليه بحكم الأمومة!

صورة معكوسة.. أليس كذلك؟!

قامَ مقامَ الوالد فينا، يفعل ولا يستشير، أقواله أفعال واجبة التنفيذ.. يذهب.. يأتى، يدخل.. يخرج، لا سؤال، ومن يجرؤ على الكلام..؟!

يومًا بعد يوم تلونت عيناه بلون النار وتأففت نظراته..!

صمدت أمام شرره وحاولت معهم.

حاولت شحذهم ليدرءوا معى حمم براكينه، لكنهم آثروا السكينة ورضوا من الغنيمة بالسبات!

-«لئن عضدتمونى وآزرتمونى لكان ذلك خيرًا». لكنهم آثروا السكوت، وربما اتهمونى بالعصيان والخروج على الصف، حتى كان قراره باقتلاع ورود حديقتنا وجاراتها من أشجار شهدت طفولتنا ليستبدل بها أشجار اللبلاب.

صلوا على النبى

كان ذلك عصر أحد الأيام لما بدأ ومساعدوه اقتلاع ورود الحديقة وأشجارها.

ساءنى ما رأيت، رميت كتابى، ناديت أمى، صحت فى وجه إخوتى..

كلهم آثروا السكوت...! حرت فى صمتهم، لماذا هم هكذا..؟

أهم موافقونه..؟

أهم رافضون..؟

لماذا لا ينطقون..؟

شققت صفهم...، كدمًى عن طريقى أزحتهم حتى وقفت قبالته وهو يملأ فراشه!

أيرضيك ما يفعله ابنك فينا؟

أيرضيك ما يصنعه من أقمته علينا؟

أيرضيك أن يقتلع الورود ويستبدل بها اللبلاب؟

أيرضيك أن تسكن الأفاعى بيتنا وتسمم الثعابين حياتنا؟

زيدوا النبى صلاة

قرأت وجهه لأستبق معنى قرار سوف يصدره.. بنصف عين رمقنى، وبملامح لم تتبدل أو تنفعل بكلامى قال:

- قل له يأتى.

خرجت إليه، فما أن أخبرته حتى رمقنى بازدراء.. تقدمنى، تحدثت إليه فلم يأبه بى.

شرح لأبى فكرته، وبدا لى من المناقشة اقتناعه بوجهة نظره. واصل:

- «وهى أشجار سريعة النمو.. دائمة الخضرة، قليلة التكاليف وفوق ذلك فوائدها متعددة».

أضاف:

- «بلغة الاقتصاد هى الأوفر وهى جميلة، وربما تكون الأجمل، ستكسو أوراقها جميع المساحات الجرداء، وتلتف سيقانها على الأشجار الميتة فتعود كما لو كانت قد دبت فيها الحياة!».

ثم أردف:

- «وإذا كانوا يبحثون مثله عن الورد - لم ينظر لى - فليطمئنوا جميعًا فهى كذلك مزهرة، وزهورها جميلة هادئة فمن أراد زهورها فلينتظر موسمها، ولا تنس يا أبى أننا سنستثمر بذورها».

صحت مقاطعًا: زهور لبلاب؟! هل جننت؟ أوافقك القول إن تكاليفه أرخص، لكنه كما تعرف يا أبى فهو نبات متسـ....

قاطعنى موجهًا حديثه إليه: ازرع اللبلاب، ولا تقلع الورد.

من جديد قاطعته: لكنك يا أبى حكمت على الورود بالإعدام، ألا تدرى أنه نبات متسلق؟ ألا تدرى أنه يسكن أى شىء، ألا تدرى أنه سيميت الورد..؟ ألا تدرى أنه سيكون مأوى للحشرات والفئران والأفاعى؟

بلا استئذان دخل مساعدوه، اعتدل أبى فى فراشه مرحبًا فلما أحس فيهم رغبة العمل أشار أن اذهبا، حاولت الكلام لكنهم كانوا قد خرجوا، وأشاح والدى بوجهه عنى واستلمت عيناه الحائط.

انتم معى؟

نما اللبلاب.. تكاثرت أعداده.. انتشحت بلباسه كل أشجار الحديقة، حجبها الضوء، وسد أنفاسها فماتت واقفة.

ولما لم ترض الحديقة طموح أشجارنا الجديدة مدت أيديها لجدران بيتنا حتى كاد يفعل فيه ما فعله بأشجارنا.

والنتيجة؟!

النتيجة حذرت منها مقدمًا، حذرتهم من كل شىء، ولم يكن غريبًا أن تتكاثر الأفاعى والحشرات، وتدخل الفئران بيتنا فى أسراب، وأمست حديقتنا ومدخل بيتنا مأوى لحيوانات ضالة كثيرة، فما أن واجهتهم بما حذرت منه حتى وجدت أخى قد سبقنى إلى انتزاع موافقة أبى بالإبقاء على اللبلاب واقتلاع ما عداه من أشجار الحديقة.

الشونة

تكرر تسلل ديك الجيران عبر الأسطح المحملة بالأعشاب وروث البهائم المجفف والمصفوف كأرغفة مستديرة تلف زوايا أسطح البيوت منذ سنوات طويلة، والحاجزة خلفها خزين أهل الدار من حبوب الذرة والبصل العفن أكثره، إلى «عرصات» حظيرتنا المتهالكة ذات الجدران النباتية الملطخة بخليط «الطين» و«التبن» هابطًا إلى داخل الحظيرة غير عابئ بديكنا الوقور، ولا بصغار الذكور، عابثًا بأقواتهم، ومستحلاً ظهور البعض من دجاجاتنا فى مشاهد استنكرها معظم من بالحظيرة إلا قليلاً ممن قد «طالت» ألسنتهن على ديكنا واستهزأن بصغار ذكورنا.

لم تكن لتنفع حكم وكلمات ديكنا، ولا صياح الحسرات من المتعففات الباقيات من دجاجنا، ولا الأدب الجم الذى حرص عليه صغار ذكور ديوكنا!

طاردت أنا ذلك الغريب بالعصا، وأنهيت الصراع لصالح دجاجنا، وأشرت على أمى وأبى بإعادة تعريش سقف الحظيرة، وترميم التشققات التى كانت قد بدأت تظهر على الجدران «الجرباء» كلون أديم الأرض الباهت.

نال كلامى من أبى التأييد، لكن أمى صاحت فى وجهه ووجهى مؤنبة ومعلنة عدم الموافقة، وترك السقف كما هو، فإذا كانت الشمس تدخل من خلاله فهذه بلا شك كما قالت فائدة،

وإذا كان ديك الجيران يهبط فهو ديك أشهب ومن سلالة تتفوق على سلالات دجاجنا، بل وقالت: إنها ستكون سعيدة إذا أفلحت المنجبات لدينا من كسب وده، ووضع فراخ من نسله، وواصلت: أما إذا كان قد عبث بأقواتهم وأكل معظم زادهم فقد تعهدت أمامينا بزيادة الحصة فى الصباح، بل وأكدت بمضاعفتها إن هو أجهز عليها كلها.

كتمت غيظى من كلام أمى فى نفسى، والتقت عيناى بعينى أبى مواسية فأسررت ما عزمت داخلى.

***

فى الصباح وبعد أن بكرت أمى بفطور الدجاج على فطورنا امتطيت متن بيتنا الطينى متحفزًا هجوم ديك الجيران.. أعيانى الانتظار حتى هبطت على صيحات أمى وأبى الذى كان قد انتهى من تقطيع «شونة» المواشى، وجهز «الغبيط» المحمل بالسبخ على ظهر دابتنا وساقها للخارج لأنطلق بها إلى كوم «السباخ» الرابض على الترعة الموازية لحافة السكة الزراعية المارة من أمام حقلنا البحرى.

***

عاودت التربص فى أيام كثيرة، لكن ديك الجيران لم يأت، وما عدت أسمع صيحات الدجاج، ولا حتى استكار الصبية من الديوك الصغار فى حظيرتنا، كان كل شىء يمر بسلام، أو هكذا خيِّل إلىّ.

فى مرة دفعنى فضولى للاطمئنان على دجاجنا، وديكنا المخضرم، والديوك الأشبال.

هالنى ما رأيت..!

كان ديك الجيران يمرح وسط دجاجنا، يطعم هذه، ويمتطى تلك، وفى الركن انزوى ديكنا يفترش الأرض ورأسه منكس أمامه، بينما الأشبال يترقبون جانبًا عسى أن تصلهم حبة طائشة من حبات الذرة، أو كسرة من خبز، وربما يتحينون الفرصة للتسلل لرى ظمئهم من إناء الماء.

لحظات مرت حتى سمعت وقع أقدام أمى وهى تسن السكين على حجر «الصوان» الملقى منذ أمد بجانب الجدار، فأقبلت حتى أمسكت بديكنا الذى لم يبد أى مقاومة، ولم يأبه بما علم أنه سيكون مصيره..!

كان ديكنا منتوف الريش، مكسر الأجنحة.

لم أدر إلا و«الخيزرانة» تهتز فى يدى، هبطت على ظهر المتسلل بها فانطرح أرضًا يلفظ ما بقى فيه من أنفاس.

ثم التفت ناحية أمى التى تعلم ما بداخلى، وما انتويته ساعتها.. عندها ألقت بشيخ دجاجنا، وسقطت السكين من يدها، وخرجت من حيث أتت.

عاودت رفع العصا فى الهواء، وهبطت بها على رأس ذلك الذى ارتضى هذه الحال.. كادت نظرات عينيه الحزينة أن تثنينى لكننى واصلت الهبوط بالعصا على رأسه فلحق فى مصيره ديك الجيران.

---

* نشرت بجريدة السياسي المصري - يوليو ٢٠٠٢م.

المتجشئون

كانوا بطانًا فتضاءلت كلماتى وضاعت معالم خططى الواثقة أمام اهتزازات كروشهم المتدلية أمامهم فى خيلاء.

قلت إنها مرحلة، والبضاعة الجيدة تطرد الرديئة. إلا أن بضاعتهم أجهزت بـ «القاضية» على بضاعة أمثالى.

لما تضجرنا، وتذمرنا أنا ومن معى من نفر قليل لم نستطع الصمود أمام مد بطونهم وانفتاح أفواههم.

تحاملت على نفسى مرة وجمعت أوراقى وحاولت من جديد طرح أفكارى على من تولى زمام الأمر فى إدارتى، تناولها بلا اكتراث، وضعها أمامه، سألنى عما بها قلت: الأفضل أن تقرأها سيادتك. قال: لا وقت عندى لأقرأ ما فيها، إما أن تقول ما بها أو تعود، وإما أن ترميها.

لما بدأت الكلام تدفق رنين الهاتف فى أحاديث غير ذات أهمية، ولما عاد من حيث كان يتحدث سألنى عن سر وقوفى أمامه، أشرت ناحية الأوراق فأعاد لم نفسه فى كرسيه.

بدأت الكلام من جديد.. تجشأ وهو يرتاح فى جلسته، ارتجت مسامعى لما خرج من فيه، وأطاح هواء جوفه بأوراقى المستذلة أمامه.

انثنيت ألملم أوراقى فهب واقفًا من مجلسه، دفعتنى بطنه فتحاملت على يداى قبل أن تصطدم رأسى بالأرض.

لما أعدت وقوفى محاولاً التماسك قال لى: المقابلة انتهت،

لا حاجة لى بأفكارك ولا بأوراقك.

لما نجحت فى الحصول على موعد من المسئول الأعلى لم يكن الحال بأحسن من سابقه، بل وعوقبت بتهمة تخطى من يقفون فى السلم بيننا.

فى أقـــرب سلة رمـيت بورقى وأفكارى.. بدأت أسـايرهم، ويومًا بعد يوم تحولت من الخماص إلى البطان، ويومًا بعد آخر صرت أنافسهم فى تجشئهم، وعامًا بعد آخر تدرجت فى المناصب حتى رسمونى على كرسى المتجشئ الأعلى.

الطريق الثالث

قالوا: اضرب بعصاك الكلب.

فلما فعلت صرت لفكيه مغنما..

نزف الدم، انتفضت المروءة فى جسدى.. أمسكت بحجر لكنهم حالوا بينى وبينه!

انسللت غاضبًا من زمرتهم، رافعًا العصا.. ففوجئت به يقف فى وجهى. هرولت أحتمى متمنيًا أن يحولوا بينه وبينى.

قال غريب: لماذا أنت تحديدًا؟! لم أرد، لأنهم - دونه - يعرفون.

عدت ألملم أشيائى، وأصلح من هندامى.. بينما انشغل الآخرون بتهدئة الكلب خشية صاحبه.

ليلاً - بين اليقظة والمنام - كل معضلة مهما تعقدت أجد لها الحل..

كلها حلول سحرية جميلة.. أعتدل معاودًا تذكرها وترتيبها فتطير من ذاكرتى، كأنما تسطو على عقلى أشباح مجهولة، تسرق منه حلولى لمشكلات منزلنا، وبلدتنا!

تغفو عيناى.. تهاجمنى كلاب كثيرة، فاغرة أفواهها، أرمى لها بكل زادى.. تأكله وتنبح.. أفتح لها باب الدار، تجوب غرفاته غرفة غرفة.. فتأتى على ما فيها وتنبح.. أرمى لها بكل ما أملك، تستولى عليه وتنقض علىّ!

أهرب أمامها.. أجرى.. ينغلق باب دارى خلفى.. أجرى..

أواصل الجرى.. ألهث.. أتخفى.. أرتمى أرضًا.. لكننى لا أصحو!

أستغرق فى النوم.. أرانى طائرًا عن الأرض.. مرتفعًا عن كل هامات أقرانى.. أبتسم.. تملؤنى الثقة.. تنفرج أساريرى، ويتسع شدقاى.. أستيقظ على لسعات البعوض وحشرات الفراش الأخرى.

---

* نشرت بجريدة (الجورنال) بتاريخ ٤/٦/٢٠٠٠م

مسئول الأمزجة

ارتخت ساقاه المحملتان ببقاياه المديدة القاتمة السواد، القائم فى أعلاها وجه تتخلله الأخاديد العميقة، وتنتشر على سفوحه الندوب والنتوءات وشعيرات قليلات آثر أكثرهن الوقوف على ذقنه إلا قليلاً..!

ارتمى على أقرب مقعد وجده، كان فى غرفة السكرتير الذى طالما تجنى عليه وهاجمه، وناقشه فيما يعرف وفيما لا يفقه وأحرجه كثيرًا..!

أخذ شهيقًا طويلاً أعقبه بزفير أحدث صوتًا فى الغرفة الهادئة فى الساعات الأولى من الصباح، ولم تنفرج مع ذلك أساريره، حاول القيام فلم يقدر، حاول ثانية لكن أنفاسه اللاهثة فضحته أمام من اتخذه غريمًا له - السكرتير عز الدين، انتبه لمشهده السكرتير عز الدين، مال عليه، مد له يده لكنه أزاحها، سأله عما به، لكنه لم يجبه..! اكتفى بالنظر إليه - تلك النظرة التى يحاول فيها رسم بعض من الشموخ والفهم، محاولاً كذلك تحميلها بخبرات السنين الطويلة فى هذا البلد الذى أتاه راكضًا وراء الرزق منذ نيف وثلاثين سنة مضت..!

يا له من عمر طويل، وصبر عجيب على فراق الأهل والأبناء فى أرض السودان الذين لم يزرهم طوال هذه السنوات إلا ست مرات فقط يحفظهم عن ظهر قلب، ويؤرخ بهم لحوادث حياته الماضية!

حاول عز الدين معه مرة أخرى متغاضيًا عن إهانته له منذ لحظات وفيما مضى كثيرًا، لكنه أزاح يده للمرة الثانية بعيدًا واستكثر حتى أن يشكره ولو من باب المجاملة على شعوره هذا..!

فكرها شماتة فيه!، وضعفًا منه أمام غريمه ينبغي أن يداريه؟!

أقصى تدرج وظيفي وصل إليه هو مسئولية إعداد المشروبات للمدير والموظفين والقلة القليلة من الضيوف، بعد أن عانى في هذه المهنة كمساعد لمن سبقه، وقبلها كساع بين المكاتب حتى وصلت به الحال واستقر به المقام في إعداد المشروبات التي لا تتعدى بأي حال من الأحوال صنفي الشاي والقهوة.

حاول معه عز الدين مرة ثالثة مهونًا عنه بأنه كابنه أو أخيه وبأنه ابن بلده.. طالبًا منه وضع يده في يده وبألا يجعل ما بداخله أسود هو الآخر، نظر إليه محتقرًا إياه كعادته ومستهزئًا بكلامه وبشخصه قائلاً: أنت.. أيها السكرتير؟!

أضع يدي في يدك أنت؟!

رد عليه عز الدين: ماذا دهاك يا بشير، إنني ورغم الفارق الوظيفي فيما بيننا - أنا سكرتير المدير العام بشهاداتي وخبراتي لم أتعال عليك يومًا ما، ولم أضع قيودًا على المعاملة بيني وبينك رغم تجاوزاتك ولسانك السليط، عاملتك كوالدي، لكنك للأسف لم تعاملني كابنك، بل واتخذتني عدوًا دون وجود لما يستوجب هذه العداوة، لماذا؟! لا أدري.

عرف عنك بين جميع الزملاء تدخلك فيما لا يعنيك.

وآراؤك الغريبة وكلماتك التى لا تخضع لأى من مقاييس الذوق، وغير ذلك من الآراء التى لم تلدها أفكارك حتى صرت تتحدث بأفواه الآخرين فى كثير من الأمور، ورغم كل ذلك لم يشأ أحد أن يحرجك لكبر سنك رغم علمهم بأن الأفكار ليست أفكارك والكلام ليس بكلامك، ولم يرد أحد أن يؤذيك رغم كلماتك الجافة وردودك المقتضبة النابية، ورغم عدم أهليتك للحديث معهم، وها أنت ذا تحتاج إلى المساعدة وترفضها من باب الكبر والمعاندة والجهل القابع فى رأسك المتعجرفة.

كانت شفتا بشير قد أخذتا فى التحرك استعدادًا للكلام، انطلقت كلماته كمدفع سريع الطلقات قائلاً:

- عندك أيها السكرتير، هل ظننتنى قضيت، أو أننى سأظل صامتًا لما تخرف به من هذيان؟!

لا تعطى لنفسك أهمية، ولا تتعالَ علىّ بوظيفتك، فأنت مهما بلغ بك الطموح سكرتير، تؤمر فتجيب، ليس لك من رأسك شىء، إلا الاستجابة، وإذا كنت تعمل مع المدير العام فأنا أعمل معه كذلك مع امتيازى عليك بتحكمى التام فى مزاج ورأس المدير، فكما أنه بإمكانى أن أعدل هذا المزاج فبإمكانى أيضًا أن أقلبه!

ثم إننى أكثر خبرة منك فى هذا المكان فقد عاصرت ثلاثة من المديرين هنا، وقبلهم عملت فى جهة أخرى وطويت خدمتى هناك بعد أربعة من الرؤساء تعاقبوا على الإدارة، وهكذا استقر بى المقام لأرى وجهك الكئيب كل يوم!

ضرب السكرتير كفًا بكف من كلام الساعى بشير فى أثناء مناقشتهما التى احتشد على ضجيجها بعض موظفى مكاتب

الإدارة الذين هالهم حديث الساعى للسكرتير.

لم يزد السكرتير شيئًا، فقط اتجه ناحية ماصة مكتبه بينما انفتح باب مكتب المدير العام وخرج على الحشد فى مكتب السكرتير حاملاً قهوته الصباحية، بحث فى وجوه الوقوف والقعود حتى عثر عليه.. ذلك البشير.

كانت نظرته الحادة كفيلة بأن تخلع قلب بشير فى من بين ضلوعه مما جعله يتلعثم وقوفًا..!

رمى المدير بفنجان القهوة فى وجه بشير مواصلاً حديثه إليه: قيدك من الآن قد طوى.. عليك بمراجعة شئون الموظفين.

---

* نشرت بجريدة الرياض السعودية بتاريخ ١٩٩٤/٨/٤م.

الجيفة

قالت لى أمى عندما كنت صغيرًا : لا تعرها اهتمامك، واصل سيرك، لا تلتفت للخلف بل انظر أمامك.

لما اشتد نباحها التفت حولى ولامست بأفواهها وجهى، تحاملت على خوفى، وانكمش داخل ملابسى جسدى، حتى انغرست أنيابها تنهش لحمى.

جأرت بكل صوتى وتحركت يداى ورجلاى حتى خارت قواى، لا أدرى من خلصنى من أنيابها، ولا حتى كيف كتب لى النجاة يومها .

(٢)

جاء ترتيبى الأول عليهم يوم أعلنت نتيجة الشهادة الثانوية، التفت بعضهم أبادله التهنئة، وجر آخرون أذيالهم.. كنت حزينًا..

لم تكن درجاتى لترضينى، ولا لترضى ثقتى وتوافق طموحى، جاءت أقل مما توقعت وتمنيت.. رغم ترتيبى الذى لم يكن غريبًا عليهم، وأشعل فيهم نارًا موقدة.

عند المساء، ووقتما يحلو لشباب ومراهقى قريتنا المشى على جسر السكة «الزراعية» سمعتهم عمتى وهى «تدمس» الفول خلف شجرة «ست الحسن» أمام عشتها البدائية كانوا ينهشون فى سيرتى..

يقللون من شأنى وقيمتى..

فلست فى نظرهم إلا ابن ذلك الأجير المتجول بين حقول وبساتين آبائهم وأجدادهم.

(٣)

تدرجت فى العمل فى عدة مواقع، وارتقيت عدة درجات دفعتنى إحداهن لأكون قريبًا من رئيسنا جميعًا فى العمل.

كنت كلما دخلت عليهم يغيرون حديثهم متصنعين الانشغال، ومن ينتبه لقدومى لا يحسن الاستقبال حتى إذا كان ظهرى فى وجوههم هدروا كالعاصفة من جديد.

قصدت تكرار رجوعى إليهم بمجرد خروجى من عندهم حتى أقطع عليهم دابر الغيبة والنميمة ولأقطع ذلك الحقد المشتعل فى صدورهم خجلاً - لكنهم لم يعودوا.

(٤)

فى ذات مرة من مرات رجوعى إليهم حددت أسماء بعضهم وبصوت حازم ناديتهم..

فالتفوا حولى مطرقين..

لما ركلت قدماى بطونهم انفجرت منهم رائحة نتنة، فلما شهقوا ولوا مدبرين.

---

* نشرت بجريدة الرياض السعودية بتاريخ ١٩٩٦/٣/٤م.

فصل من باب الانتظار والصد

لما تهاتفنا كان الوعد بلقائها! وقفت.. مرت الثوانى كأنها السنون..!

منذ كم لم أرها؟! ومنذ كم فقدت الإحساس بهذه النسمة الهادئة..؟!

تحرك عقرب الدقائق بطيئًا، تعدى الموعد الدقيقة الأولى، عاودت أجوب وجوه جميع القادمات فى اتجاهى، من بعيد رأيت هيكل وجهها - تهللت-،كانت برفقة صديقة لها - تضجرت - كيف ستقدمنى لها؟! تصنعت الانشغال فى وقفتى، نظرت فى الأرض، حركت قدمى بلا اكتراث، دارت رأسى لتضع وجهى فى الاتجاه الآخر حتى تقترب ليكون اللقاء - أمام صديقتها - مفاجأة لى ولها!

لما اقتربت كانت المفاجأة..!

لم تكن هى، ولا التى برفقتها هى صديقتها!!

غير معقول - هل أصبحت كمن يرى رمال الصحراء ماءً؟!

هل استحال وجهها من بعيد سرابًا؟

سخرت من نفسى التى خدعت فى تحديدها، ومن نظرى الذى رسم الأخريات بتفاصيل وجهها.

- وهل سنة واحدة تصنع فىّ ما صنع بى؟!

عاودت «الحملقة» فى الساعة، تعدت الدقائق الخمس بعد موعدها. هونت من شأن تأخيرها، فهذه هى عادتها لم تخلفها

حتى وإن باعدت بيننا المسافات والأيام.. أتراها كما هى؟!
هل ما زالت بنفس الملامح، تسير الهوينا، ما أقساها.. ملامحها هادئة، صوتها ناعم جميل، وتصنع بى الثورات والأزمات!

مرت دقيقتان بعد الخمس، رصدت من بعيد وجهها.

كان هو..!! كانت بمفردها، مازال الهواء يعبث بشعرها الحرير، مازالت نظارتها تحجب عن الهواء عينيها، تهللت، رقص قلبى بين ضلوعى، عاودنى شعور المراهقين حين رؤية المحبوبة.

عدت فتى يافعًا يعرف الحب، يحمل رأسه بأحلام يقظة وردية، تتداعى فى مخيلته الصور جميلة، ويخجل بالتصريح لمن أحب..!

آه.. ما أجملها من أيام..!

ترى أين هى حبيبة الصبا الآن..؟

هل مازالت تذكرنى؟ وهل مازالت تحتفظ برسمى «بورتريهًا» لوجهها العاشق الجميل؟!

كنت فى الثانوية وقتها، شببنا معًا حتى افترقنا على أعتاب الدراسة الجامعية.. تزوجت هى وسافرت.. هذا آخر ما وصلنى وقتها من خبرها.

كان راسى يهتز يمنة ويسرة، تحسست ملامح وجهى فاستطعت أن أحددها سعيدة!

ترى ماذا سيقول الناس الآن عنى؟

ماذا سيظن إذا عاين أحدهم الآن وجهى؟

سيقول: يضحك بلا سبب..!!

سيقول: مجـ.. .. لا.. لا.. لا أظن أحدًا رآنى كما أظن أنا.

لما اقترب وجهها منى كانت صفعة أصعب من سابقتها!!

لم تكن هى!! ولم يكن الذى اصطبغ بالاصفرار هو شعرها!!
ولا ما وضعته على عينبها هى نظارتها!!

يا إلهى..!! ماذا حدث لى؟!

هل تشابهت علىّ الصور؟ هل ملأ عينىَّ السراب؟ أم هل ولى عنى الشباب؟

عدت «أفرك» عينى، تململت من وقفتى، تحركت فى مكانى، سرت يمنة ويسرة.. عاودت النظر فى ساعة معصمى، مرت سبع بعد الدقيقتين الأخيرتين.

أصررت على ألا أخدع فى المرة الثالثة، لابد أن تكون من سأراها هى.. لن أسمح لنظرى بخيانتى، ولا لنفسى بخديعتى..!

سأراها رغم عشرات المتشبهات بها!! سأراها رغم تلك الوجوه التى يكتظ بها ذلك الشارع اللئيم..

ما بين نظرى فى الساعة وارتداده للشارع حتى استطعت تحديدها، لم أستطع الانتظار، تحركت سيرًا على الرصيف وسهام عينى مصوبة فى اتجاهها.. أسرعت الخطى حتى أقلل من مجهود مشيها، ولأقطع على نفسى شكها فى لقائى بها..

منذ كم لم أرها..؟!

ومنذ كم لم تصافح عيناى قلب عينيها..؟!

منذ كم لم نتحدث ونحن صامتان يقرأ كلانا وجه الآخر ويعرف ما سوف يقول؟!

منذ كم؟ ومنذ كم؟

ولكن.. ولكن ما هذا؟!!

لا.. لا.. إنها.. لا لا.. ليست هى ليست هى..!!

نعم ليست هى..!!

لم أستطع الوقوف، واصلت السير فى اتجاهى بينما صارت من خلتها هى فى الاتجاه الآخر.

سعادة المدير

أدخلتني ملامحه الغليظة في تأمل طويل ما بين وجه كبير قياسًا إلى الوجوه المألوفة، إلى صدغين مكتنزين أشبه ما يكونان بثديين ضلا طريقهما ليستقرا في هذا المكان، إلى أنف أفطس غائر بين هذين التلين، أشبه ما يكون بواد منخفض بين جبلين، إلى عينين باهتتين لا تقرأ فيها إلا التبلد، إضافة للبلاهة العامة التي تكسوه والتي حاول جاهدًا محوها بأوامره وتوجيهاته إلى مرءوسيه ومراجعيه..

«أعد كتابة هذه المذكرة، راجعنا بعد ثلاثة أشهر، مخصوم منك أربعة أيام».. سيل من الأوامر، كانت تعقيباته مضحكة، وتوجيهاته شاحبة، لكن من يقوى على معارضته؟ بل من يقوى على مجرد الاقتراح عليه؟!

وضح أن الجميع بما فيهم المراجعون قد ارتضوا سياسة الأمر الواقع عملاً بالحكمة الخالدة: «دوام الحال من المحال».

ربما كان تركيزي عليه، ونظري المتطلع إليه قد لفت انتباهه، لكنه حاول ألا يعيرني اهتمامًا.. ربما حاول - هكذا ظننت - وربما ساعدته ملامحه التي لا تلوي على شيء على إخفاء حقيقة أنه لاحظ أنني أتطلع فيه، وأدقق النظر في ملامحه، وأفكر في تصرفاته..

كان عليّ أن أنتظر عنده حتى وصول المسئول الكبير.. طال انتظاري، ولكنني انشغلت بملاحظاتي على سعادة المدير،

فخفف ذلك من وطأة الانتظار.

تلاحظ لى أنه يحاول جاهدًا أن يظهر لى مدى انشغاله، بل ربما سولت له نفسه أنه مشغول بالفعل وصدقها ..! لكن كانت تفضحه إجاباته فها هو لا يرد السلام على من يدخلون لتحيته مبديًا لهم انهماكه الشديد فى الأوراق والمعاملات التى يرفعها أحيانًا أمام عينيه فيتوارى خلفها وجهه..!، وها هو يهب واقفًا مرحبًا بآخرين ما أن يسمع وقع خطواتهم..!

حاولت قدر استطاعتى ألا أظهر له اهتمامى بأمره لكن ربما فضحتنى عنده عيناى الشاخصتان فيه والمصوبتان على ملامحه واللتان حاولت أن أثنيهما عن غيهما فلم أفلح..!

بدا لى أنه ضـــاق منى، ومل من طول انتظارى عنده فى انتظار وصول المسئول الكبير..

هبط بالأوراق من على عينيه ورماها على ماصته ثم التفت يسارًا حيث أدار قرص التليفون.. لم تمض لحظات إلا وأحد مرءوسيه كان يقف قبالته فى انتظار أوامره. أشار ناحيتى بلا اكتراث قائلاً: خذ الأستاذ معك حتى يصل المسئول الكبير.

---

* نشرت بجريدة الرياض السعودية بتاريخ ٢٠/١٠/١٩٩٤م .

ذكر الدجاج

عندما رمى بالكومة التى كان يحملها فوق كتفه كانت ركبتاه قد تصلبتا عن المشى وآثرتا الوقوف لا طاعة ولا عصيانًا، فارتمى فوق كومته يغالب شمس الظهيرة التى ألهبت فناء بيته البدائى الذى تغطيه الأتربة فى كل الأركان.

نظر للشمس نظرة بائس.. لكنه حاول الصلابة معها مثلما هو صلب مع زوجته وأولاده الذين أعياهم شظف العيش فى كنفه.. لم تجد نظرات القوة ولا نوايا الاستعطاف مع هذا الفحيح المتدفق من باطن قرص الشمس!

نادى بكل صوته على زوجته.. أثناها بابن من أبنائه.. لكن يبدو أنهم كانوا قد انفصلوا عن عالمه الملتهب بقيظه «اللا منتهى» فآثر السكوت، وارتضى رغمًا السكينة.

عندما ارتضى الانهزام وكادت أن تشتعل من تحته كومة «الحشائش» أعاد النداء مرة ومرات.. بلا فائدة. حاول النهوض مجددًا لم يقو، ارتكز على كومة الحشائش والبوص وحاول النهوض من جديد لكن الحشائش غاصت بيديه فى أحشائها!

أحس ببعض من الرطوبة فى جوف كومة الحشائش خلع يديه ودس رأسه وسطها ليقيها بما تنطوى عليه شر نار قيظ الصيف.. عندما تبخرت منه آخر حبة عرق كانت الحشائش الظمئة قد جف عودها فانكمشت عن بقايا رأسه ذى الوجه

الداكن الملطخ بملامح الشظف وعندما هب أهله من سباتهم
كان ديك الصباح قد اعتلى رأسه يصيح بأعلى صوته معلنًا
يومًا جديدًا.

* نشرت بجريدة اليوم السعودية بتاريخ ١٩٩٥/٢/٢٤م .

البلدوزر

عندما امتطى العامل صهوة «البلدوزر» كان صاحبنا قد أتم احتلال إحدى كنبات مكتبى جلوسًا، وعندما أدار العامل مفتاح آلته لتصدر صوتها المزعج الذى كان قد بدأ ينساب إلىّ عبر النافذة ثم ما لبث أن ملأ على جميع الأركان فصار كصوت «الصرصور» فضاع المعلم الذى كنت أحدد منه مكان انبعاث الصوت، كان فم صاحبنا قد بدأ يتشكل اتساعًا وضيقًا.. انفراجًا وانغلاقًا متدفقًا بسيل عرم من الكلام.

وعندما تحركت «سكينة» البلدوزر لتقطع تلك التلال المكومة هناك تساقطت فوق رأسى طلبات صاحبنا التى طالما مللتها.. فلم تأبه بضيقى وآثرت عدم الانتهاء.

منذ اللحظة الأولى لوصوله هذه المنطقة وهو يسعى بكل الطرق لصداقتى، وأجبرنى حيائى على الاستماع إليه وأحيانًا مجاراته رغم ضيقى وضجرى الذى لم تكن تخفيه عنه ملامحى، لكنه رأى فى وجهى غير ما قصدت.. وفهم من كلامى غير ما أردت..!

تعددت زياراته وكثرت طلباته.. تحملت، وتنوعت فصبرت حتى خُيل لى أنه لن يتوانى فى أن يطلب منى الرحيل عن مكتبى، والتنازل له عن وظيفتى فى يوم ما من الأيام!

وعندما تحركت جبال القمامة المتراكمة منذ زمان أمام «كر» البلدوزر كنت قد «تململت» من طلبات صاحبنا، وبدأت أتحرك

- ربما إراديًا.. وربما لا - فى مقعدى. وعندما توالت صيحات الآلة مع القمامة وتعالت كنت قد بدأت أمسك بناصية الحديث.. وبدأت الكلام، وعندما أوشك «البلدوزر» على الانتهاء من المهمة التى سيق لها كان صاحبنا قد درس علىّ درسًا فى أصول الذوق وفن معاملة الناس..

وعندما فرغ البلدوزر من عمله كان باب مكتبى قد أغلق علىّ من الخارج من قبل صاحبنا الذى خرج لا يلوى على شىء.

---

* نشرت بجريدة الرياض السعودية بتاريخ ٢٠/٨/١٩٩٥م .

المخاض

أطلقت صياحها تهز أركان الليل البهيم الجاثم على صدر القرية العارى إلا من بعض محاصيل الشتاء القصيرة التى طالما لعب الهواء برءوسها وأمال أعواد أكثرها، فعاشت مكسورة تعلم أن قد آن الرحيل.

ثت.. تعاقبت صيحاتها.. جأرت بكل ما فيها حتى صار الصياح نحيبًا!

انتبه من سباته، فزع، أطل من تحت أسمال غطائه.

أردف السمع، فأيقن أنها هى، وأدرك أن قد جاءها المخاض.

هبط من فوق دفء فرن الدار مفارقًا سطحه على مضض، تاهت خطواته داخل الغرفة المظلمة فتعثرت بالأوانى الفخارية المملوءة بالحليب فانكبت بما تحمله، فهبت زوجته من نومها مذعورة تحسب أن القطط هى التى تفعلها، فاصطدمت فى لهفتها بالحائط الذى أثناها عن الانتقام.

بصعوبة وصل الباب، فامتدت يداه إلى المصباح الموضوع على الرف ليشعله قاصدًا اتجاه الشونة.

كانت تنتظر قدومهما فما أن أطلا حتى صافحهما وجهها الحزين.

على غير عادتها فى مثل هذه الأحوال وجداها ممددة على الأرض.. تركاها يفتشان عن الوليد..! فلما لم يجداه عادا إليها ملهوفين مبهوتين.

أبصرا قدميه قد أطلت.. بصعوبة حاولا معها حتى أوقفاها، كانت تنتفض وتئن.

مد كل منهما يديه ليساعداه، خرج معظم قدميه، نفخت بطنها..

ضغطت على نفسها..

تحاملت.. أطلقت صيحة ارتجفا لها ثم ارتمت على الأرض..

هرول ناحية رأسها، رفعه فأحس بأنها تلفظ أنفاسها.!

صاح فى امرأته أن تحضر السكين، صرخت من البلوى فأزاحها عن طريقه، فلما عاد وجد عينيها قد جمدتا باتجاهه..!!

كتائه عاد إلى الخلف، كظم همه ووأد غيظه متحاملاً خسارته فتوقف الكلام فى حلقه بينما امرأته مازالت تبكى وتهذى.

بكل همته عاد ليسحب الوليد

هبط.. أوقفاه..

تلفتت عيناه فى مآقيها..

صافحت حواسه عالمًا جديدًا لم يألفه.

مرتعشًا وقف قبالتهما..

أبصرا رأسه أكبر حجمًا من المعتاد، نظر إليهما، أطال النظر ثم مد رأسه للأمام.

سال من فيه المفتوح لعاب كثير، ثم أطلق صيحة عالية وتكوم بجوار أمه.

---

* نشرت بجريدة عكاظ السعودية بتاريخ ١٩٩٦/١٢/٢١م .

الأعقاب لا تلهب النهر

هم بإشعال «سيجارته» الثالثة، عاكسه الهواء وأطفأ عود الثقاب، ازداد توترًا.. أشعل الثقاب مرة أخرى ورغم حرصه لم تلتحم النار «بالسيجارة» فقد مارس الهواء لعبته مع الثقاب من جديد، نظر بعيدًا وراء «الكوبرى» الحديدى الذى تمتطيه سكك حديد الصعيد لعله يلمح «الأتوبيس» النهرى لينتقل إلى الضفة الشرقية من النيل فلم ير شيئًا.

أعاد الكرة من جديد مع الثقاب والسيجارة وبحرص زائد.. اشتعلت السيجارة.

جاب المرسى ذهابًا وإيابًا.. لم يلمح أثرًا لأية وحدة نهرية، كثرت الأعقاب على وجه النهر، ومعها أعواد ثقاب أكثر..

بين الحين والآخر كانت لنشات صغيرة تنطلق بأقصى سرعة تشطر الماء يمينًا ويسارًا، وفى الخلف منه شاب «بالشورت» الأوربى يمارس رياضة الانزلاق على الماء.

ابتلع النهر معظم سجائره، ولم يلمح فى المدى الأتوبيس النهرى.

- لماذا تأخر الأتوبيس؟

- لا ندرى.

- ألا يوجد حل؟

- لا يوجد حل.

- والعمل؟

- على الله.

ود لو قــذف «بناظـر» المرسى فى النهــر ذى الإيقــاع الرتيب لكنه تمالك أعصابه.

- ما العمل؟

أعاد السؤال مرة أخرى ولم ينتظر إجابة.

أشعل سيجارة جديدة من سابقتها.. ورمى بسابقتها وجه النهر فابتلعها ولم يتبدل حاله.

نظر يمينًا ويسارًا، دار شمالاً وجنوبًا، رمى بكل سجائره وجه النهـر.. بينمـا انطلق «اللنش» المسـرع وخلفـه الشـاب «بشـورته» الأوربى يمارس رياضة الانزلاق على الماء.

---

* نشرت بجريدة السياسي المصري بتاريخ ١٣/٢/٢٠٠٠م .

قبل التقاعد

تكاثرت السيارات.. زاحمته يمينًا وشمالاً، هدأت السرعة، وتباطأت الحركة.

- لا أحد يلتزم بالقواعد..!

واحدة انعطفت عليه لتحتل المساحة الخالية أمامه، أخرى تدفعه من الخلف، لم يهتم.

- الاحتكاك بسيط..!

انفرج الطابور الذى يسير فيه، تحرك، سيارة أخرى تعتدى عليه من اليمين، نزل يزعق فى قائدها، آلمه ما لحق بسيارته.

توقف الطريق..!

بماذا يفيد الاعتذار..؟ وهل يقبل العوض إن عرضه الآخر؟!

تعالت أبواق السيارات من الخلف، الآخر غير مقتنع بخطئه..!

- لا أثر لضابط لهذا الطريق..!

ضرب كفًا بأخرى، عاد إلى مقود سيارته.. تخطاه كثيرون، تحرك فانفرج من خلفه الطابور، تسابقت السيارات من حوله..

- اليوم يصدر القرار..

- هل أحصل على الدرجة؟ هل يوقع الوزير..؟

تقاريره ترشحه، لكنها تملك من الأساليب ما لا يملكه ولها من الأسلحة ما يتعارض مع خلقته.

- لكننى الأقدم، والأكفأ..!

- ومتى كان للكفاءة والأقدمية من قيمة؟!

الكثرة ترشحه، لكن نفس الكثرة تنكمش مساحتها كلما جاء ذكر غريمته..

- المعاش المبكر هو الأفضل لى.. لن أستطيع أن أعمل معها، لن أكون مرءوسًا لها.

تعالت الأبواق، احتكت سيارته بالرصيف.. انتبه، أعاد القبض على مقود السيارة، عاد السير لرتابته، ومازالت السيارات تمارس هوايتها فى الاعتداء على المساحات التى تخلو أمامه!

- حتى متى أخشى من كل شىء؟ وإلى متى كل هذا الحرص؟ تخطانى كثيرون وأنا الأكفأ، والأحرص، منذ لحظات أصيبت سيارتى، وأنا الحريص، ولم يقر المخطئ بخطئه ولا ساق حتى مجرد اعتذار..!

لابد من قفل المساحة، تلزم المناورة، ولا مانع من تخطى الآخرين.

حتى متى أظل ملتزمًا ويكسب الآخرون؟! حتى هنا على الطريق.. لا فن، لا ذوق، ولا أخلاق..!

شد من هيئته، أطلق نفيرًا طويلاً..

انفجرت أمامه مساحات وابتعدت عن طريقه سيارات، صار المدى مفتوحًا..!

عندما وصل المصلحة.. قفز الجميع يهنئونه..!

---

* نشرت بجريدة (الأهرام المسائي) بتاريخ ٢٢/٤/٢٠٠٠م .

الشيخ حسن

عندما ضرب بعصاه الأرض تطايرت ذرات التراب والحصى فى عيون مقتفيه، وعندما تمكن الإيمان من قبله أدرك أن أحدًا لن يستطيع أن يؤذيه.

كالبرق كانت الطائرة التى اعتلى متنها، وكالرؤى كانت الأحداث!

مزيجًا من الحلم واليقظة أصبحت أمامه، معظم ما يحدث له أو يمر به رآه من قبل أو فكر فيه وخلص إلى رأى.

صارت الدنيا تضحك له..!

عندما رست به السيارة أمام أحد المنازل المعلقة فى الهواء فى تلك المنطقة الجبلية الوعرة لم يكن ليتخيل أنه سيستطيع أن يعمر هنا، أو أن أيامه ستتجاوز أصابع اليد الواحدة عددًا.

لكنها الأيام..

والحاجة..

والعسكر..

والخوف من الرجوع.

فى طريقه إلى المسجد صاحت عليه جموع من كلاب لم يَخْشَها لأنه أحسن التعامل معها بعصاه.

وعندما انطلق صوته بأذان الفجر ترددت بين جنبات الجبال أصداء صوت جميل أيقظ الناس، وانتبهت له البلابل والعصافير.

مانجو.. وفواكه أخرى

تعلقت عيناه بها وفتنته بسموقها .. كل يوم هى آية جمال، حتى إذا ما غسلها الندى وتطهرت أوراقها عاكستها الشمس فتلألأت ثيابها تحت أشعتها الذهبية فتختال بثمارها الصفراء المشرئبة بالحمرة فتتوق إليها نفسه، ويعيش مع حلاوتها المسكرة حتى يوقظه من هيامه صوت فلاح «يزعق» فى دابته، فيتذكر أن الترعة مازالت عائقًا أمامه، وعيدان البوص على حافتها والتى تسكنها الأفاعى السامة تشكل حائط صد لانطلاقه، وديدان «البلهارسيا» المتوطنة فى قاعها تهدد جسده الغض.

تذكر قبل «البارح» يوم رآته الهانم على الجانب الأيمن من شاطئ الترعة وقرأت فى وجهه العوز فرمت إليه بواحدة..، كانت صغيرة، ولكنها لذيذة..!

لا يدرى سببًا لما ناله من عقاب بيد «العرجون» القديم على يد أمه، وركل أبيه فى بطنه حتى كادت تتفتت أحشاؤه!

- «آه لو رأتنى ورمت إلى بواحدة اليوم».

سأهرب بها داخل حقول الذرة... سأهرب طوال اليوم حتى لا يضيع طعمها من فمى..!

- وإذا رأتنى أمى، أو ضبطنى أبى؟

.. لا مشكلة، سأكون حذرًا، سأستكشف المكان قبل أن تمتد إليها يداى، وسأدفن فى الطين قشورها وبذرتها..!

فجأة تذكر بذرتها..

يالها من فكرة رائعة..

نعم سأدفن بذرتها فى الطين فإذا نبتت شجرة مثل أمها رعيتها حتى تشتد ويسكن البأس ساقها لتنافس فى تيهها أمها، فإذا ما أثمرت ملأت الأرض ببذورها.. سيكون هنا حقل من المانجو.. لا لا بل مزرعة..! لكن أبى لن يرضى.. أنا أعرفه، مثلى يشتهيها لكنه لا يزرعها ولا حتى يشتريها..!

ربما يدوسها... ربما يقتلعها المحراث..!

هو لا يعرف إلا القمح والبرسيم والذرة، حتى القمح يضن علينا به ويبيعه..

ما أجمل خبز القمح، وما أسوأ الذرة وجميع ما يصنع من طحينها..!

استطرد:

لكن بعد عدة أعوام لن تكون هناك مشكلة، ستكون الأرض لى، حتى إذا واصلت الدراسة وحصلت على شهادة وتوظفت سأديرها بمعرفتى، وأزرع ما يروق لى، لن أزرع قمحًا ولا برسيمًا ولا ذرة، سأجلعها مانجو وربما برتقالاً وعنبًا..!

سأنافس بها مزرعة «الهانم»، سوف يقولون مزرعة «حسن بك عبدالكريم» وأنا أدخل بسيارتى إلى قصر لى بداخلها يفوق فى بهائه «سرايا» الهانم، ولن أتزوج ابنة الهانم، هذه البنت البيضاء ذات الشعر الأصفر والعيون الزرقاء، سأقترن «بواحدة» من «بلاد برة» لأغيظها تلك التى «رميت» عليها السلام كثيرًا فلم ترد علىّ، ووقفت قبالتها فلم تكترث بى، هذه التى حاولت مرارًا أن ألفت انتباهها ولكن بلا فائدة!

حتى لو وافقت أنا وتزوجتها، فلن أكون مثل أبيها، سأكون أنا

الرجل، وتكون الكلمة كلها لى.

أفاق حسن على همهمات رجال فتكسرت خيالاته. قال واحد لآخر: لم يعد هناك داع لأن تمتلك حمارًا..!، أرضك وأخذتها «الهانم» وجاموستك ليس لك فيها إلا العشر، فالأفضل أن تبيع حمارك، وترد على جاموستى وأعطيك مالك عندى.

قال عاشر فى وقت آخر من نفس النهار وهو يقنع عبدالكريم بالتنازل بدلاً من الدخول فى معركة خاسرة مع الهانم ورجالها: إذا لم تبع يا عبدالكريم فأنت الخاسر، من أين ستصل لأرضك؟ وكيف سترويها، الجميع قد باعوا..، أرض الهانم تحيطك من الجهات الأربع..!، ديونك المستحقة لها عليك تفوق ثمن قراريطك بكثير، الأفضل أن تدخل معها فى تسوية، فربما أسقطت عنك ما تعدى قيمة قراريطك.

تابع: يا عبدالكريم كن واقعيًا..، من سيتكفل بأهلك إذا ما نزعت منك الأرض، وسجنت؟!

صرخت أم حسن.. وانعقد لسان عبدالكريم على «لا حول ولا قوة إلا بالله» وحسن مازال بالخارج يلعب «الرشقة» فى خرابة الشارع.

لما أقل المشيعون، وووري عبدالكريم التراب، وجرى السائق الأسود ليفتح للهانم باب السيارة، هبطت وصارت قبالة «أم حسن» خاطبتها ناصحة بأن تترك «الدار» وتأتى إن أرادت للخدمة فى السرايا هى وابنها. قالت أم حسن: بيتى مثل عرضى لن أبرحه.

قالت الهانم معقبة: ما لم تعلميه أن البيت أيضًا باعه لى فقيدك قبل البارحة..!

صرخت أم حسن فيها مرددة أن اخرجى، فلما دفعت يديها كان الخفراء قد أحكموا وثاقها.

زعقت فيهم، سبّتهم.. ولكن بلا فائدة.!

لما أكمل التابعون رمى أمه فى عرض الشارع الطينى وهى تصرخ «مولولة» كان حسن ما يزال يطوف مبهورًا بسيارة الهانم الفارهة التى عكس زجاجها صورته، وخيال أمه، وبيتهم، فلما أغلق السائق بابها الخلفى وجرى ليقبض على مقودها تلاشت الصور، ولأول مرة وجد حسن باب بيتهم فى وجهه موصدًا.

* نشرت بجريدة اليوم السعودية بتاريخ ٤/٨/١٩٩٧م.

كرسى العرش

تتقدم تسابق خطوها وتطاول بجبينها أساطين معبدها، وهو من خلفها يتنسم عطرها حتى وإن تشبهت فى الطقوس بالرجال.

تدخل مكتبها.. يغلق الباب.. ترسل فى طلبهم.. تصيح فيهم.. تستهجن أعمالهم.. تحقر من جهودهم.. تغالى فى توبيخهم.. يخرج البعض ثائرًا، والأغلبية مطرقون.

يرخى الحمالون المحفة أرضًا.. تملأ الكرسى المصنوع على قدها.. تراه من عَلٍ على جانبها.. ترميه بنظرة فيرتد إلى الخلف صاغرًا.

تتململ فى كرسيها، هذا هو الكرسى الرابع، وهو كسابقيه..

- لا يرضى مزاجى.. ولا يتناسب مع جلستى.

أشارت إليه بهدم جدار يقف إلى الخلف منه قدس الأقداس..

- أنا ابنة آمون، والحاكمة باسمه!

رفع ناظريه فى وجهها:

- أعشقك حتى وأنت تعيشين الفرية التى ألفتها، لأثبت أحقيتك فى عرش لا تستحقينه.

أطرق بالإيجاب:

- كونى ابنة لآمون أو لغيره، لن يقلل ذلك من غرامى شيئًا.

- غدًا يأتى الوزير، سوف يبهر بما سيرى.. سأمتلك رأسه.

لن أدعه هذه المرة.. أنا الأجدر برئاسة المصلحة.. سأقرأ فى أسارير وجهه القرار.

نصحه البعض بالتريث، والإعداد للأمر جيدًا، لكنه صاح فيهم: منذ متى اعتلت العرش امرأة؟

أخبرها سكرتيرها بازدياد الغاضبين عليها من مرءوسيها.. قاطعته ثائرة:

- جرذان.. آن وقت عودتهم لجحورهم.

ذكرها متلعثمًا بما كان من عشقهما.. دوت جنبات قاعة العرش بثورتها.. انحنى معتذرًا يعود بظهره للوراء.. اصطدم بهم يتقدمون إليها يجردونها السلطان.

فى كامل زينتها وقفت وتابعوها فى انتظار وصوله لاهثًا.. أخبرها سكرتيرها بما وصل من قرارات، قبل أن يخلص سقطت على بساط أحمر يبدأ من عند رصيف الشارع، ويتعرج مع الدرج ممتدًا إلى داخل مبنى رمادى كئيب..

---

* نشرت بجريدة الجورنال بتاريخ ٢٠٠٠/٧/٢٣م

فيديو كليب

دائمًا ما يأتى وفى يده أشياء غريبة، وما أن يدخل بخطوه غير المتزن حتى تجذبه الموسيقى، فتبدأ انفعالاته بتوزيع سجائره، والقبض بأسنانه على واحدة، فإذا ما أجهز عليها رمى عقبها بانفعال المنتشى متوحدًا مع موسيقى صاخبة، وغناء إيقاعى راقص دأبت على بثه شاشة تلك الفضائية العربية التى اقتصرت مادتها على الغناء بإيقاعه الراقص، وكليباته الجريئة، فيطلق صيحته العبثية مشيرًا للشاشة، وربما داعيًا رواد المقهى للرؤية: «بنت حلوة.. بنت خواجاية».

يواصل الرقص مرتعشًا فتنطلق أعضاؤه فى حركات غير متوافقة حتى ليبدو كل عضو من أعضائه يرقص بمعزل عن أشقائه الذين يضمهم جسد هذا الإنسان الغريب.

ابتسامة مبتسرة ومبهمة دائمًا هى كل ما نستطيع أن نرصدها على وجهه الشاحب المائل للصفرة، وشعر رأسه خفيف يذكرنا دائمًا بأجرب تعافى فعاد نظيفًا وإن ظلت أثار مرضه تدل عليه.

تتغير ملامحه وإيقاعاته بين الجد والهزل، وتتوالى كلماته وتعبيراته التى لا يفهم معظمها أحد، وعندما يشاهده صاحب المقهى قد وصل إلى ذروة الاندماج يقوم فجأة بتغيير القناة، فيتوقف مشدودًا وثائرًا ثم راجيًا بكلمات غير مفهومة أن يعيد إليه القناة.. فإذا أعادها - عاد ولانت عظامه وانطلق فى عالمه

متمايلاً حتى إذا أعاد صاحب المقهى «الكرة» لعنه ساخطًا خارجًا إلى الشارع بأشيائه مطلقًا نداءه المعتاد: «ياولاد» فتأتيه كلاب من كل صوب وتظهر بإيماءاتها وحركاتها ولاء له وطاعة حتى تكاد مؤخراتها تقع على الأرض من فرط فرحها الولائى.

ينسى ما كان..

يسير وهى من حوله ترسل أصواتًا مقتضبة ربما تأمينًا على كلامه غير المفهوم حتى تعترضه كلاب عدلى الثلاثة - التى أعلنت منذ أن اعتاد هذه المظاهرة عداءها له - فيقف منها موقف الند يسبها، ويركل الهواء فى وجهها بينما تطاوله هى النباح، فلا يستطيع السير إلا إذا نادى عدلى على كلابه فتعود أدراجها وهى تزم على أفواهها، فيعاود السير وسط قطيعه الذى يلتزم الحياد فى معاركه دائمًا.

***

عندما وجدنى صاحب المقهى مهتمًا بأمر محمود، وبأمر أشيائه التى يحملها قال لى: إنه دائمًا يدخل عليه بقطع جديدة من أشياء، وعدد وأجهزة، وإن كان حتى الآن لم يدخل بشىء كامل.

حكى لى أنه دخل عليه ذات مرة بجزء من سلاح نارى، ماسورة بندقية وزناد، وبعض الطلقات الحية، وفشل فى انتزاعها منه، مثلما دخل عليه بأجزاء من نوافذ خشبية، وتروس دراجات وملابس ومفروشات، ولا أحد يدرى من أين يأتى بها أو إلى أين سيذهب بها وإن كانت البلدة لم يشكُ أحد منها منذ ظهور محمود من فقدان شىء.

***

تعددت وطالت جلساتى على المقهى، وأنا أحاول أن أكلمه حتى وإن أجبرنى على مشاركته الرقص، وفى كل مرة ناديته نظر إلى متأففًا من تطفلى، وفهمت من نظراته المحيرة ألا أعود إلى محادثته، حتى جاء اليوم الذى دخل فيه المقهى وبدأ طقس قدومه بأن أعطانى سيجارة، فأشعلت له سيجارته، ولما وقف بجانبى شجعنى ذلك على سؤاله: لماذا يرقص؟! فأجاب دون أن ينظر: «علشان بنت حلوة»!

فقلت ساخرًا: لكنها من أمريكا، وأمريكا بتضرب إخواننا؟! فانتفض زاعقًا: «طب وإحنا مالنا؟!» قلت: لكنهم عرب مثلنا؟! فاكتفى بما قال.

كنت أقصد التسلية، وها هى إجاباته تدفعنى لمواصلة عبثى معه، وجال بخاطرى أنه ربما لكينونته يكون مبروكًا مثلما كان يدعى خلفاء الموالد وأنا صغير فى قريتى!

قلت: وإسرائيل؟!، قال: كله.. كله.. كله وحش!

قلت وأنا أرسم ملامح الجدة على صوتى: لابد أن ندافع عن إخواننا.. فسبقنى بما لم أفهمه وواصل كلمته متعلثمًا: «طب وإحنا مالنا»!! وانطلق خارجًا وقابضًا تحت إبطه على علبة «فوط صحية»!

***

استرعى انتباهى صوت محمود الذى أعرفه وأنا أركن سيارتى على مقربة من المقهى، كان يتحدث جادًا وإن خرج صوته طفوليًا متهتهًا، ووضح من خلال انفعالاته أنه يخطب فى أناس لا يوافقون على ما يقول.

استطعت أن أصل إلى حيث يجلس بين السيارات من حوله

مـجـمـوعـة من الكلاب التى انضـمت إليـها على غيـر العـادة مجموعة من القطط، وكم كانت مفـاجـأة لى أن أرى وسط هذا الجمع مجموعة من الخرفان والنعاج وتيوس الماعز.

حسنًا - قلت، وصـحت: كيف حـالك يا مـحـمـود؟! نظر إلىّ شـذرًا بنصف انتبـاهة، وأعـاد النظر إلى جلسـائه، فهبوا وقـوفًا ففهمت أنه أصدر أمره إليهم بالانصراف.

أعدت النداء عليه فأشاح بيده وولى هاذيًا، فواصلت مسيرى إلى المقهى عله يعود.

---

* نشرت بمجلة أخبار الأدب ٢٠٠٣ ، وبجريدة الجمهورية بتاريخ ٢٠٠٣/٤/٢٤م .

الأردية

كان الشتاء - فهبطت به أحلامه على أرض باهتة، وتكسرت طموحاته على صخور قاسية..

- منذ متى وهو يجاريها، يطاوعها فى غيها ويرضيها؟

كانت الرياح - فسكن الغبار الفضاء، وأكل الصقيع من الجدران، فنخر البرد قواه وشل الآخرون ما تبقى له من أعصاب.

ارتضى العيش قعيدًا، ضاعت صفقاته، وامتلك ناصيتها من فاقوه فى تسييسها ومجاراتها وطاعتها فى غيها..!

لم يكن قبلاً ليشعر بالبرد، أو يحس الصقيع يكسر عظامه مثلما الحال الآن، كل شىء أصبح باردًا حتى لفائفه التى لا تنطفئ لم تعد لتعدل من مزاجه، تلك التى كان ينفثها فى أنوف أقرانه وتابعيه!

فشلت كل وسائل التدفئة، وفشلت المدفأة فى إذابة الثلج المتجمد على بدنه مثلما فشلوا هم فى نفض غباره.

انقطعت عنه الأخبار، ومكالمات التابعين والأقران، شلت هواتفه، حتى إذا تعافى أحدها كان هو غير المقصود بالسؤال.

تردد قبل أن يفعلها.. تردد كثيرًا، لكنه فعلها أخيرًا، كلهم غير موجودين، كل يوم هم هكذا، كل ساعة هم هكذا.. حتى فى الليل هم كلهم هكذا..

امتلأت الحديقة بأوراق الأشجار التى خلعت ثيابها فى موسم الاحتشام، تجولت عيناه عبر فضاءات الحديقة.. بركة السباحة.. اللقاءات وعشاءات العمل، و.....، و....

رغمًا عنه وربما بتواطؤ منه خرجت به إلى عرض الشارع لم يلحظه بضيقه وزحامه إلا اليوم فقط!

منذ متى لم ير الشارع وهو يمر فيه يوميًّا؟!

كان دائمًا مشغولاً، لم يكن لينتبه إلا والسائق يهبط منتصبًا يفتح له الباب ويسير خلفه بحقيبته المليئة بالأوراق.

- منذ متى وهو لا يأنس بأولاده الذين لا يراهم حتى وهو مقيد.! حتى زوجته كانت لها حياتها، ولم تألف بعد هذا الوضع الجديد، كانوا جميعًا ينتظرون قدومه الذى كان يتأخر دائمًا، فخرجوا جميعًا كل يؤنس وحدته ويقتل فراغه بطريقته، صار لكل طريقه الذى ارتضاه وقنع بالسير فيه، وحده هو الذى بلغ النهاية، لا، ربما يكون قد ضل الطريق.

تكاثرت الأسئلة فى رأسه لكنه عجز عن الإجابة عن واحد منها حتى التفت حول مركز تفكيره الذى شلته الأوضاع الجديدة.

كان يعلم أنهم جميعًا يلتفون حوله لمصلحتهم، لكنه مع الأيام صدق كلامهم بأنه العصب الذى إذا انقطع ذهبوا، وبأنهم إذا ذهب ذهبوا، وإذا اقضى انتهوا!

إحساس بالنشوة والسمو والثقة المفرطة كان يعتريه وهو يسمع كلامهم، ويطرب وهم يمدحونه، ويتيه بفروض الولاء والطاعة والاستشارات والأسئلة التى كانوا يختلقونها رغم تفاهة معظمها، لكنه هو المهم، ويجب كسبه عن طريق أهميته

ما دام يعير لذلك الاهتمام اللازم.

انفرطت كل هذه العقود، وتحطمت عند أول اختبار يتعرض له، لكنه كان اختبارًا حادًا، ذهب بكل شيء.. الثروة.. والأصدقاء، حتى زوجته وأبنائه.. خسرهم جميعًا.

كيف يبدأ وهو لا يملك؟

كيف يتخذ قرارًا؟

كيف يقنع آخرين وهو لا يقدر على إقناع أحد من آل بيته؟

انفرط كل شيء.. ذهب المال والجاه، ضاع القرار، تربصوا به جميعًا فأوقعوه، كانوا كثرة وهو فرد.

تذكر حكاية حزمة الحطب، لا يمكن لأحد أن يكسرها إلا إذا انفرطت عيدانها، وقد ظن أنه بأتباعه حزمة، لكنهم انفرطوا وعندما عاد لأبنائه وبيته لم يجدهم.

ضربت عليه الوحدة فسهل كسره.

تبدلت مراكز القوة، وبزغ نظام جديد.

هل يوافق على علاقات أبنائه واستثماراتهم بما تبقى له.. البيت؟ بل كيف سيرفض وهو مشلول الحركة، مسلوب القرار؟

كان البرد يكاد يفتت عظامه، وأسنانه تكاد تتكسر من شدة احتكاكها، ورأسه يكاد ينفجر بما تولد ويتولد من فكر، كيف يواجههم. آل البيت، والرفاق، والأغراب.

قل كلامه لأنهم عندما يريد التحدث يتركونه، وعندما يقترح يستهجنونه.

طال الشتاء.. والبرد لا يزال ينخر فى عظامه، وهو قابع أمام مدفأته بأرديته الثقيلة التى لا يحس دفئها.

تعالت ضحكاتهم وأصبح كلامهم جهرًا واتفاقاتهم شهرًا.
تساقطت عنه أرديته واحدًا تلو الآخر، لم تعد لتجدى فى شتائه
الذى لا ينتهى وبرده الذى لا ينقطع، الجميع لا يعيره اهتمامًا،
ولا يحسبون لوجوده احترامًا..

هب واقفًا.. صاح بكل صوته.

سكتوا للحظة

صاح فيهم، سبهم، غطى صوته على أصواتهم.. لكنهم من
جديد تكاثروا عليه، فأحاطوا به، حملوه حتى وضعوه فى
السرير؟

بينما أتمت زوجته فرد الغطاء.

• أكتوبر ١٩٩٦م .

ولى الدم

يوم أن قالها وقفت فى وجهه وأنا الأكبر، فلم يأبه بى ويدا أنه غير مقتنع بكلامى، حاولت أن أثنيه لكنه كان قد صب أثاثًا وشاد دورًا!

حشدت له أمى التى ترملت علينا، وعبأت بأعمامى الذين تشاغلوا بالحياة عنا، وبقية إخوتى الذين شاركونا شظف العيش النظيف، فلم يرجع عن غيه، وسار بنا إلى الطريق الذى رفضناه منذ أن كان هذا اليافع رضيعًا!

يوم قتل أبى كنت أسير إلى جواره، اغتالته رصاصة غريمه دونما ذنب اقترفه إلا من تنافس على مكاسب العيش تطور إلى خصام لما طمع هذا الغريم فى مكان بسطة أبى فى السوق، يومها رمى أبى ببضاعته فى عرض الطريق واعترضه الغريم فما كان من والدى إلا أن صفعه فانغرس وجهه فى الطين. لم أكن أتمنى ما حدث ولا أن تمتد يدا أبى إليه، تمنيت لو أن الله أبعده عنا، أو أبعدنا نحن عنه، كنت أخشى ردة الفعل التى ربما تأتى غادرة من الخلف، فما أكثر الشجعان الذين أهينوا على أيدى الجبناء.

كانت الأيام فقيرة، لكنها كانت جميلة بريئة براءة طفلة قروية لم تتلوث عيناها بدرن المدينة.

لم يرحم طفولتى، اغتالنا معًا، انكفيت أصرخ، أحاول أن أقبض على ملامح أبى المتمرغ فى التراب، أحاول أن أسعفه

لكنه فارقنى، فارقنا جميعًا جزعًا.

بكيت كثيرًا، صرخت عاليًا، أقسمت ساعتها على الانتقام، رأيته هو الآخر قتيلاً، شممت رائحة الدم يستمتع برحيقها أنفى، تلذذت بكبده المنهوش، ثم دفعته بقدمى فتدحرج يغتسل بماء الخرابة (خرابة الشارع) الآسن.

انتظرت ذلك اليوم طويلاً.. منذ أن أودع قاتلنا السجن وأنا أنتظر ذلك اليوم، لأثأر لى، لأبى، لأمى المترملة.. لإخوتى الضعفاء.

فلماذا يا أخى تأتى أنت الآخر لتغتال الحلم الذى عشنا جميعًا من أجله، ألا يكفى ما تعرضنا له من قتل مرات عديدة، ألا يكفى أننا عشنا فى غير كنف أب، وحرمنا كثيرًا من متع الحياة.

قال أخى:

- يا أخى أعلم أن من وسائل حصولنا على حقنا أن نقبل بالقصاص، ولكن ألا تعلم إذا كان ذلك سيرد لنا عزتنا كما تقولون فما فائدتها، وماذا نحن فاعلون بها؟ بل.. وماذا تساوى فى عالم اليوم؟

واصل:

- لا تفهم من كلامى أننى إنسان سلبى، أو انتهازى، أو عديم الولاء أو غير ذلك من المسميات التى أنا واثق من أنك ومن شايعك ستطلقونها علىّ! فقط أنا أفكر بعقلى وليس بقلبى، إذا حكمت عقلك فسوف تهتدى إلى نفس ما اهتديت أنا إليه، كفانا تفكيرًا عاطفيًا حتى متى سنظل نفكر بقلوبنا؟، ونحكم على كل الأشياء بقلوبنا؟ لماذا لا نستثمر أى فرصة تلوح لنا - لصالحنا؟!

تعلمت أن الرفض خسارة، وأرجو منك أن تتعلم أن القبول مكسب ما دمت تملك عقلاً قادرًا على التفاوض!! ربما أنت لا ترى فى هذا العالم غير لونين فقط، أما أنا فأرى الألوان جميعًا بل وخليطها وما يمكن أن ينتج من خليط خليطها أنا وأنت لا ننتمى إلى مدرسة تفكير واحدة، أنت تريد.. وتحلم جالسًا، لكننى تعودت الإقدام يا أخى. ومن كل ذلك تولدت لى خبرات تفوق إمكانياتك بكثير رغم أنك أنت الكبير.

فلا تتعبوا أنفسكم معى، لن تفلح محاولاتكم، ولا حتى إن ملكتموها.. إغراءاتكم..!

بصقت أمى فى وجهه، وحلت بينه وبين شقيق لنا هب لينازله.. مسح البصقة، وأصلح من هندامه، أعاد ترتيب ذاته ثم قال:

غدًا سأقف أمام القاضى.. لأعلن له قبولى بالدية، سأحصل على نصيبى، ونصيبكم سيحفظ إذا تلكأتم.. ستتأخرون، ولكنكم بعد ذلك ستذهبون.

---

* ١٩٩٧م.

المعادلة

توطئة

مدت شقيقتى «التى مازالت تحبو» يدها اليسرى - تشاركنا دائرة الأكل الملتفة حول «الطبلية»..! ولا أدرى إن كانت قد قدمت اليسرى عندما خطت للمرة الأولى..!، وإن كنت قد لاحظت لاحقًا أنها كتماثيل الفراعنة تقدم يسراها..!، ولو كانت تقرأ أو تكتب لقلت إنها تعلمت عنهم، لكن ما يبرئها من تهمة النحل والنقل أو التأثر أنها كانت - لا تزال - تحت السن الإلزامية!

ساءنى ما أرى..

وخشيت أن تشب هكذا، وتشيب على ما ابتدعته وخرجت به على يميننا، ونبهت أمى لأمرها..

على عكس ما توقعت قالت أمى: دعها تقدم أو تؤخر ما تشاء، فالذى خلق اليمين هو الذى خلق الشمال، واستطردت مفسرة:

وإذا كانت الشمس تشرق من الشرق فإنها حتمًا تغرب فى الغرب.. ثم أضافت: وكما تكتبون أنتم من أو باليمين، فكثيرون غيركم يكتبون من أو باليسار.

توضيح

قال أبى لما لاحظ أن أطباق «الغموس» أصبحت لا تتعادل أو تتكيف مع الأرغفة البلدية الموضوعة على «الطبلية»: إن

الشياطين صارت تشاركنا المأكل. رغم تأكيدنا له فى كل مرة أننا «سمينا الله» فى سرنا قبل أن تمتد أيدينا، ولما كان غير مصدق لنا أصبحنا ننطقها جهارًا فى حضرته...، إلا أنه لاحظ أيضًا أن الأرغفة أصابها ما أصاب «الغموس»، وأن البركة ضاعت.. أو طارت من بيتنا، فما كان منه إلا أن صاح «زاعقًا» فى أختنا متهمًا إياها بأنها السبب فى «عفرتة» الأكل، منذ أن امتدت شمالها تشارك فيما تمتد إليه أيادينا.

مدخل

انتهت الأغنية

بعدها بدأ حوار مع مفكر شهير...، سألته المذيعة عن المستقبل فى ظل العولمة، و......، وقبل أن تكمل المذيعة أسئلتها، ودون أن أعرف تفسير المفكر للعولمة قامت أمى بإطفاء الجهاز قائلة:

- كلام فى كلام..!

وقبل أن أعترض، دخلت أختى يسبقها عطرها النفاذ ترتدى بنطالاً ضيقًا فهللت أمى لرؤيتها، واحتضنتها، وتابع أبى المشهد غير مكترث كحاله الذى تعودناه منذ كثر الخبز وتعددت أنواع الغموس فى بيتنا.

نهاية

رن جرس الباب

دخل شاب يحمل على يديه صناديق طعام ورقية، أمرته أختى بوضعها على المائدة، فهرولت أمى لفتحها...، وعندما فاحت رائحة الشواء وسال لعابنا، برقة «سينمائية» دعتنا أختى للمائدة.

---

* ١٩٩٨م.

عولمة

أوقعنا قدرنا فى دائرة اختصاص زوجته باعتبارنا شأنًا داخليًا، وتوزعت الاختصاصات الأخرى بينه وبين ابنه.

قلت له:

- يا أيها الأخ الكبير، ارأف بنا وبأحوالنا!

ألا تدرى أنك بفعلتك هذه تضعنا فى الهوان، وتؤمر على أمك وعلينا من لا تهابك، ولا تهتم بأحوالنا؟!

قال جامعًا:

- ثكلتكم أمكم أيها المعاتيه، وهل تظنوننى بمطيعكم، أو بمتأثر بحججكم وحكاياتكم؟

واصل جامعًا:

- إذا كنتم تريدون الحياة وخبرتها، اخرجوا إليها، دعكم من الدراسة.. اخرجوا للعمل.. بعيدًا عنى وعن البيت.

وقال يخصنى بالحديث:

- وأنت أيها الحكيم، دعك منى ومن زوجتى، ومر ديثك فى علاقات تحكمنا وأسس نسير عليها.. أو غير ذلك مما صوره لك خيالك فى علاقتها بى، وعلاقتى بها، هذا شأنى وشأنها ولا دخل لك أنت بى.. أو بها.

أعاد الحديث جامعًا:

- إلى متى سأظل أتكفل بكم وأنتم رجال فى ثياب المراهقة.

تحرك ماشيًا، صاحت أمى فيه، لكن قلبه أغلق دون

سماعها، دعت عليه فلم يهتز، وتركها تصيح غاضبة.

رفعت أمى الأمر لأكثر من قريب لنا..

تحجج الأعمام، وتحرج الأخوال، وزاد الجيران الأمر سوءًا، ولم تتحرج أمى فى مخاطبته للمرة العاشرة، ولكنه صم أذنيه عن سماعها، شدته من قميصه، بعنف أزاح يديها، أطبقت على رقبته فدفعها لتسقط على الأرض هامدة.

رفعت وجهى فصوب سهام عينيه فى عينى، التفت ناحية إخوتى وجدتهم مطرقين.. فأطرقت مثلهم.

صاح فينا وهو يصلح من هندامه:

تعلمون أن أباكم لم يترك شيئًا، وبركة لم أنل من أبيكم مثلى مثل ابن اسحاق الأكبر، لم يتبرك أحد منكم كما نالها يعقوب خداعًا بمساعدة أمه.

وأمكم أمامكم..

وأنتم عبء علىّ.. فلا أراكم، ولا ترونى .

ساد صمت قصير قطعته زوجته بضحكة خليعة وهى تتم اتكاءها على كتفه الأيمن، بينما ابنه منتصب على شماله فعدنا نكمل دائرتنا جالسين حول أمنا التى لم تنهض من رقدتها.

---

* ١٩٩٨/٩/٢٧م .

كليوباترا

قال لى بعد أن عرف بإشاراتنا المتبادلة إنه اصطحبها فى نزهة بريئة فزعزع مذاق النصر فى حلقى، وأكد لى بعدما علم بأننى رميت إليها برقم تليفونى واسمى أنهما تبادلا الحب طيلة إجازته الماضية فقتل الفرحة فى قلبى.

إن كان قد فعل، فلماذا يحكى لى؟، تراه يغار؟ أم يريد مصلحتى؟

يوم هبطناها وصحبتى لفتنا فى نور كورنيشها، كدنا نتوه فى شوارعها المتعامدة والمتوازية.

يا له من موقع عبقرى - كان يقصده عندما خططها لتكون حاضرة تحتضن البحر وتروض أمواجه وتقوم على ناصيته فلا يضل أبدًا، شعرت بها تضمنى كطفل تائه، فرميت بكل لعبى، وسكنت إلى حضنها.

عاودت الظهور من شرفتها.. رأيتها، أشارت لى، قاومت الإجابة.. أمسكت يدى لكن أحداهما خانتنى، وغصبًا عنى جاوبت إشارتها.

فى البحر حيث الليل ينسدل، والنجوم فى اللا مدى تتحرك أنوار واهنة بعيدة، هى المدينة.. وهى الدليل.

كانت صفارتها عجيبة، طويلة ومهيبة طالما اهتدت بها سفن الأقدمين، وأنست بانعكاسات مراياها مراكب الصيادين.

واقفة، كانت. وأنا تائه فى اللا مدى، ورغم حكاياته عنها واصلت التجربة ويدى تقبض على هاتفى المحمول فى انتظار

صوتهـا الـذى لا يـأتى.

كـأنما قد بعثت من مـرقدهـا، تجسـدت أمـامى، وعبـدالوهاب ملحن اسـمـهـا يتسـاءل: أى حـلم من ليـاليـك الحسـان طـاف بالـموج ففـنى، وتغنـى الشاطئان»

كانت ملكة، بل كانت غـانيـة.. الرواية تقول ذلك والتـاريخيون يؤكدون أنها كانت داهية.

تساءلت: أمن أجل امرأة تشتعل الحروب؟

أجبت: ومن غيرهن تسببن فى معظم الخطوب؟

.. انتهيت إلى نتيجة سريعة مؤداها أن ما يدور جدل عقيم لا يفضى إلى جديد.

قال ثالثنا الذى يشاركنا الشرفة: لماذا هى صامتة، وما معنى إشاراتهـا؟.

فطنت لافتراض صديقى ورفضت تصديق ما يرمى إليه

صحت بأعلى صوتى:

أنت أيتـهـا الحـورية، يا كليـوباترا التى أغـوتنى تكلـمـى، هاتفـينى.. لكن لا تشيـرى، افـتحى فـاك، أريد سـمـاع صـوتك، قولى أى شىء.

بدلال رفعت رأسهـا وسارت نحـو البـاب لتغلقه خلفهـا ونحن فى حيرة من أمرهـا.

اختـفت كل أنوار البـحـر، وعـلا صـوت الموج وتذكـرت أن زلزالاً مـدمرًا كان قـد ضـرب المدينة فهـدمهـا وأطاح بمنارتها ومـن يومها تتناقل كتب التاريخ أخبارها، وتحاول رسم صورة تقريبية لشكلها.

---

* سبتمبر ١٩٩٩م.

وجدتها

قال: وجدتها. وهو يتفحص وجهها قبل أن يتم توقيعه على أوراق انتقالها للعمل فى مدرسة من المدارس التى تشرف عليها إدارته.

وفى المدرسة قال مدرس العلوم لما ظن الجرأة فى عيونها ورأى التشجيع فى كلامها: وجدتها.

وقال أحدث زميل لها لما رأها «فينوس» المدرسة: وجدتها.

وقال آخرون مثل أقوالهم دون أن ينطقوا، فعاشت الزهو ورسمت الدلال، ولم تشبعها نظرات الجوع فى عيون كل من تقابلهم من الرجال فبالغت الألوان فى هيئتها وفى ثيابها.

قال الأول وهى إلى جانبه محتلاً جانب الطريق بسيارته: أنت حلمى وحبى ودواء قلبى العليل.. شجعته ابتسامتها على الزيادة فقال: أعيش حياة زوجية روتينية.. أولادى وقد كبروا وتزوج أولهم العام الماضى.. زاد وهو يضع يده على يدها وهى تسحبها فى لا تمنع: أعيش مللاً وسأماً تعدى ربع القرن.. بالغ «بأسلوب ممثلى السينما» و«ركاكة وجوه التليفزيون»: قبلك عرفت - لكننى قبلك لم أحب.

ضحكت ساخرة وهى تنبهه إلى موعد عودتها لمنزلها فأدار المحرك وحسب أنه استلم المقود، وظن انه أمن قلبه العليل قبل أن يحال إلى التقاعد آخر العام.

وقال الآخر وهو يخلو بها فى أحد أركان معمل المدرسة: كنت أنتظرك، تأخرت كثيرًا، لكننى كنت على يقين انك يومًا ستأتين.

أضاف: فى شبابى عشت الحياة طولاً وعرضًا، لم أفكر فى الزواج، تأخرت عليه، فتأخر عنى، ويومًا بعد يوم زهدت النساء، وهجرنى الأصدقاء، تزوجوا جميعًا، وبقيت أنا أعيش الوحدة وأجتر الذكريات حتى جئت أنت.. ليتك قبل سنوات أتيت كنت قد انتشلتنى من ضياعى ومن سباتى الطويل.

بمزيد من الثقة والسخرية ضحكت وهى تتبهه إلى تفاعل المادتين اللتين خلطهما دون انتباه، فلما انتبه علا صوت جرس المدرسة على صوتيهما، وبدلال انسلت خارجة إلى فصلها.

وقال الثالث والذى ظن أنه مضح من أجلها وهو يرى الأنوثة تكاد تتفجر من جسدها: أحبك.

أعاد تأكيد قوله وهو يعلن موافقته على كونها مطلقة ولها ابن من تجربتها الأولى، وأعاد تأكيد قوله وهو يلمح إلى فارق السن بينهما وإلى أنها تكبره وأن هذا لا يعنيه!

بثقة ضحكت وهى تفتش عينيه الطفلتين الجائعتين، وواصلت سيرها فى الممر أمام الفصول، فخرج الآخرون يحيونها، ضحكت.. سار بعضهم وراءها فامتلأت ثقة ونشوة. قابلها أحد الآخرين بوردة وببسمة تقبلتها، وألقى ثان تحية فأجابته، وتعلل ثالث بسؤال فجاوبته. بينما التفتت زميلاتها يتهامسن: ماذا فى هذه السيدة يميزها؟ وزدن: وما الذى يجعل الرجال - هكذا - يسعون إليها؟

لما نظرت من عليائها وجدت الأول بسيارته ينتظر، وعرض الثانى أن يصحبها، ولحقهما الثالث منضمًا.

أشار الأول لها وهو يفتح باب سيارته بالركوب فتركته. وعند البوابة انفتح لها باب سيارة أخرى فركبت وأغلقت الباب دونهم.

---

* مارس ١٩٩٩م .

عنق الزجاجة

يولول المشيعون وهو وسطهم ينتحب، وأنا فى حيرة من حاله.. كان أكثرهم حزنًا وكمداً.

بدا الوادى رغم اتساعه وتعدد سفوحه ووهاده ممتلئًا عن آخره بأعدادهم التى احتلت جميع الأماكن موزعين أعلى وأسفل القناطر، القصير منها والطويل والتى لا يجمعها نسق معمارى ولا ذوق فنى والمؤدية جميعًا إلى تلك القنطرة الضيقة القصيرة المنفتح من بعدها المدى، والتى وضعوا أسفلها النعش يحيطه الأقارب وعلية المشيعين.

لم أكن أعلم أنه يكن لها كل هذا الحب، فهى فى نظرى ليست إلا تلك المرأة اللعوب التى سمعت عنها الكثير، والتى يومًا ما أغوتنى، وكنت سأسير يومًا فى ركابها.

روت مآقيه تضاريس وجهه الخريفى، ولعب هواء أمشير ببقايا شعر يقف على أعلى جمجمته، بينما يتقطع لوعة وأسى فى حلته التى كساها الغبار، وتبدلت أناقتها بأيدى المواسين وأجسامهم.

أثار بهيئته ولوعته جميع الوافدين.

قال نسوة: يتبقى له أن يصرخ مثلنا.. يعدد كالندابات، ويولول كالنائحات!

وقال رجال: لم يكن أقربنا منها حتى عهد قريب، لكنه اندفع إليها وسعى إلى غرامها بكل ما أوتى من حيلة، لكنها

اليـوم تغـادره قبـل أن ينالهـا.

هل كانوا ينتظرون شيئًا..؟

الجثمان فى نعشه، والمشيعون واقفون.

دارت عـيناى تـرصـد المشـهـد، وتسـجل ذاكـرتى انطبـاعـاتى وتعليقاتى المكتومة. انكفأ يحتضن الأرض، يرفعه موظفو وزملاء مصلحته، يرتفع نحيبه، تزداد قسماته حدة.

تقـتـرب من الأرض طائرة مـروحـيـة، تقـصـد النعش، يثـيـر هواؤها غبار الأرض، تشرئب الرءوس، تتعلق الطائرة فى الهواء، تتدلى حبال بخطاطيف، تلتصق بحبال برزت تلتف حول النعش، النعش يسـحب، ينطلق هو من وسطهم، يلحق بـالنعش، ترتفع الطائرة، يتعلق بالنعش، تعلو الطائرة أكثـر وهو قـابض بـأيديه على الحبال.

تختفى الطائرة - وآخر ما رأته عيناى قدماه متدليتين من فتحة الطائرة محاولاً الركوب.

---

* ٥/٢/٢٠٠٠م.

نشرة موجزة للأنباء

تزدحم أمامه السيارات الفارهة ذات الشارات والأعلام..، يقولون إن نجومه تفوق الخمس، أضطر للدوران خلفه بحثًا عن مكان لسيارتى، وكالعادة ينتشر بكثرة رجال الأمن.

يهبط مصعدان، يتحولون جميعًا ناحية واحدة، ويتركوننا وحدينا «هل كانوا يعلمون أنها سوف تتدلل، وأننى بداخله سوف أضمها ثم تقوم هى بانتعاش بمسح آثار شفاهها قبل أن نهبط من على جانب فمى؟!»

ترتج القاعة تصفيقًا، تتركز عليه عيون العدسات.. يجأر، تنفر عروقه، يعيد ويزيد.. تدور الكاميرات مع حركاته تشرح إيماءاته، يفتعل البكاء، تتساب دموعه، يصرخ، تدور الكاميرا به عليهم.. يزدادون تصفيقًا، يسب «أمريكا» - يلعن إسرائيل، تختلط أصواتهم بصوته. أهمس لنفسى: من المؤكد أن المخرج قد أخذ هذه اللقطة «بان» فيتعالى التصفيق والصفير..!

تهمس فى أذنى.. مازالت النشوى منها والشوق إليها يملؤنى، تمسح على فخذى، تشبك يدها فى يدى.. يصفق الحضور شديدًا، أقنعها بأنه لا فائدة من الاستمرار، وما يقال لا أمتلك شجاعة إذاعته.

سماء القاهرة تبكى بعد طول عناد، تراها هى الأخرى هل تتصنع البكاء..؟!

خارج العمران مثل لص أختلسها وتختلسنى، وأوالى فتح ما تبقى من أبواب قلعتى.

أصيح فيه: الشريط الموجود ليس هو المطلوب، لقد أتى من مكتبة التسجيلات بالخطأ، ما أقصده كان حوارًا قديمًا على فنجان شاى مع إحسان عبدالقدوس، وما أتانى يحمل نداءات ثورية موجهة للمناضلين الصامدين فى الجنوب العربى.

أدير الماكينة.. أسمع صوته.. كنت طفلاً، وأعود أتذكر تلك الشعارات وغيرها.. أسمع صوتها تمر من فوق رءوسنا، أتساءل وأنا أجرى أتابعها عند كبارى القناطر «كيف والفانتوم تمر فوق رءوسنا» دخلنا تل أبيب؟!

تمر أخرى، أهلل وسط أقرانى، أقذفها بالحصى وعند المساء يأتى من يقول: لقد سقطت وكانت قائدتها امرأة ولدت بمجرد هبوطها!

يصيح فىَّ والداى أن أذهب للنوم - لكننى فى العتمة أعود، أصوات المذياع هادرة.. بيانات متلاحقة، وأغنيات ثائرة.. أريد أن أحارب!

أترك استديو المونتاج وعلى الهواء أقدمها تغنى للقمر ويتداعى إلى صوت ذلك الشيخ عندما عاب عليها وهى تغنى طلبها للمساعدة من ابن عمها..

ابتسم..

تزداد العتمة عندما يطلب عمى «غراب» الخفير أن نطفئ النار خشية أن ترانا طائرات العدو..

أشير للمذياع وأصيح فيه: انتصرنا. يلعننى جدى بأبى، وتلاحقنى أمى.. أختبئ فى «الشونة». لم أعلل لماذا كان عمى الأصفر يحتضن مؤخرة الحمارة وقتها!

يرتدى سرواله، ومثل لص يتسلل خارجًا، يرتعد لرؤيتى وأتذلل إليه ألا يبلغهم عن مكانى..

أتناول ملخص النشرة - أعيد قراءته، وفى الختام أشكر الجميع على حسن استماعهم.

---

* يناير ٢٠٠٢ .

الشماغ

ربما لا يعلمون أننى قد سميت الله، وتأذنت باسمه تعالى عندما أحكى، وربما لا يعلمون أيضًا أننى أرد كل شىء لمشيئته، لذا كنت أتضجر من سذاجة مقاطعتهم حديثى ما بين قائل: سم الله. وإضافة آخر: قل ما شاء الله. أمضى مسترسلاً يحاصرنى جهلهم: وعندما أستمر يتصايحون ويتعاركون.. أحوقل.. يتركوننى وينصرفون.

لا أدرى هل كان يودع القاهرة أم يستقبل بيروت والنادل يضع كئوسًا ويرفع أخرى من ذلك النبيذ الأصفر، وهو يملأ كرسيه المتعالى على كراسى المسافرين مستلمًا البار، ومعطيًا ظهره لكل الجالسين فى صالة السفر «بمطار القاهرة الجديد».

أخشى السفر إلى تلك المدينة فى ظل ظروف دولية وداخلية ملتهبة، لكننى أقنع نفسى بعدما أقنعنى كل من استشرته بأنها رغم كل شىء فرصة لا تعوض براتبها المغرى وامتيازاتها التى أفتقدها هنا فى بلدى، ما كتب سيكون والمقدر مكتوب، هكذا قالوا، وهكذا اقتنعت، فتركت أسرتى وأهلى وعملى وهأنذا بعد ساعات قليلة أكون فى بيروت..

أصحو من غفوة تفكيرى على مشهد شدة توحده بالكأس غير عابئ برفيقه الذى انضم إليه بلباسه المطابق لشكله الخليجى مشاركًا بعد أن أقنع زوجته الملتفة بالسواد بالجلوس على كرسى ملاصق لجدار الصالة المطل على مدرج الطائرات.

يحـتـسـون فى صـمت بشـراهة «الظمـأى» إلا مـن إيماءات الكبيـر وابتـسامـاته الواثقة والسـاخـرة وحـركات رأسـه المختبئ أسفل ذلك الشماغ الأحمر ناحية زميله.

ترى لمن يثبت أنه صـاحب مـزاج، ولمن يؤكد أنه يتجـرع مـرارة الكـأس.

أعلم من نداء المذيعة الأخير أنـهمـا بالفعل يودعـان القـاهـرة لكنهمـا لن يستقبلا بيروت بل تستقبلهم عاصمة دولتهم العائمة على حقول الوقـود.. تلح المذيعة مـرة بعد أخـرى بأن نداءهـا هـذا هو النداء الأخير، يقـوم صـديقـه وبإشـارة تـتبعـه زوجـتـه بينـمـا يستمر هو جالسًا شاربًا ساخرًا من أى نداء.

أخـيـرًا يقوم ولكن إلى الحـمـام ويبـحـث الموظفـون عن راكب أنهى إجراءاته ومازال مـتخلفًا عن الطائـرة، وعندما يخـرج تكون الطائرة قد غادرت الأجواء.

---

* ٢٩/١٠/٢٠٠٢م.

اللون الأبيض

تمتزج الألوان، تذوب، ينسحب الأبيض، يتخفى.. يواصل تحريكها، يُعجب بألوانه، ويتباهى به أمام الزبائن «معلمه».

تنبت فى ذقنه وشاربه شعيرات خفيفة، يفرح بها، تعجبه صورته فى المرآة، يجرى عليها الموسى لتكثر.. يعود كثيرًا إلى المرآة.

ينطلق فى أثرها، يغازلها، تجاوبه، يتلعثم.. يعود إلى ألوانه، وفرشاته.. ود لو يرسمها، تمتص الجدران صورتها تضيع، يطرده صاحب العمل.

يستقل بأصباغه، يهيم بفرشاته، تتباعد الخطى بينه وبين مدرسته، تهجوه قصائده وتسخر منه أخيلته، تنبت فى ذقنه السوداء المهملة شعرة بيضاء - يراها يغض عنها طرفه، ينطلق إلى حيث لا يدرى.

يعود فيراها تجر من خلفها طفلين، يشيعها بنظرات لا يقوى على تفسيرها.. يعود إلى ألوانه

يتكاثر الأبيض يطغى على سواد لحيته.. تتوه الألوان فى آنيته، وبإرادته تضيع.

- من الأحسن أن يبقى كل لون على حاله!

يقص شاربه وتطول لحيته، يتباعد من حوله زبائنه، يلح على إخواته أن يتحجبن، يصيح فيهن.. يطرده أبوه، تجف فرشاته على الأبيض والأسود.. يختفى وتطول غيبته، يعود بلحية بيضاء

وثوب قصير تعلو رأسه عمامه يصافح الجميع، يلقبونه بمولانا، يتكاثر من حوله أتباعه فى موكب أبيض يجوب الطرقات.

تقطع عليهم موكبهم، تقف قبالته، يأسى لها السوداء وقد هدتها السنون.. تمد يدها لتصافحه.. يمد يده.

يعود مسرعًا فيسحبها، يتلعثم لسانه بكلمات.. يقف مطرقًا مشبكًا يديه - يرفع رأسه، يلقى السلام، ويواصل المسير.

---

* مارس ٢٠٠١م.

المنامة

أستلم الشرق. بكل حواسى أتضرع، أسافر إليه، تتورم قدماى من لسعات أرضه الملتهبة، تختلط الرؤى تتبعثر أوراقى، ألملم نفسى وأعود تحملنى الأسئلة.

أمر بهم، فى تلك البقعة ينامون منذ آماد بعيدة، أتخيلهم وهم يصارعون أمواجًا، ويسوسون بحرًا هائجًا وقاعًا خشنًا ويعودون بالدر.

كيف بالغ المملوك والدها فى جهازها وزفافها؟! أتذكر قطر الندى والخليفة فى بغداد ينتظر!

تكتمل درر التاج بماسة مسحورة سوداء تحتل الوجه بأكمله، يقولون إنها تقطر سوائل تختلف باختلاف الفصول الأربعة وتعاقب دورة الليل والنهار.

الليلة ينصب كبيرنا نفسه ملكًا!

يهب النيام من مرقدهم يبايعون، كنا أيقاظًا ولكننا سرنا فى ركابهم.

يهبطون بيته ليلاً، يدسون فى جيوبه وعلى أرفف خزانته ويسوقونه متلبسًا، يقسم منكرًا فيضيف الضابط إلى سطور محضر التحقيق قرائن جديدة تؤكد تورطه وتجعله زعيمًا لمحاولة انقلابية فاشلة.

يموت النائمون وينام المستيقظون.

أستلم الغرب.

واحدة بعد واحدة تلفظنى سفاراته، وعندما نجحت آخر محاولاتى على نفس الطائرة أعادونى!

يتصبب عرقى، أتأكد من جلبابى وأتساءل: منذ متى توقفت دورة الفصول.

أجرى وأحاول جاهدًا العودة بأقصى سرعة بما اشتريت بنقود عمى خشية أن تجف بصقته على الأرض وينمو الدود كما أخبرنى فى أذنى - بسرعة أعود لأنال منه المكافأة، قدما أمى ترتفعان تحتضنان مؤخرة عمى العارية، أرميها بأشيائه وأنطلق. على المدى يلوح أبى منهكًا يشارك الثور فى الدوران بالساقية.

---

* سبتمبر ٢٠٠٢م.

عزف منفرد

يستهجن زملاء العمل طريقة إخراجي للحروف اللثوية والمفخمة وربما المقلقلة منذ وطئت قدماي أرض هذا البلد النفطي، وتتداعى إلى ذاكرتي صورة الأستاذ «رمضان» وهو يشدد علينا ضرورة إخراج اللسان عند نطق حروف، وقلقلة أخرى... فنضحك ببراءتنا ونحن نقلده بعد انتهاء حصة اللغة العربية متسائلين: ما فائدة ذلك إذا كان حديث حياتنا يغاير ما يدعونا إليه..؟!

أعود فأضحك، وأقابل استهجانهم بقفشات على طريقة نطقهم لحروف أخرى، نضحك جميعًا فرحين بتعاملنا أمام وسيلتنا بلغة واحدة وإن تباينت لهجاتنا من قطر لآخر.

منذ أتيت بهما وهما يتشاجران، واليوم المعركة شرسة يسيل على أثرها دمهما، ورغم تفوق بسيط لأحدهما إلا أن الآخر لم ييأس مسلمًا بالأمر، فعاد ناطحًا ومدركًا أن الفوز كسر لشوكة الآخر، وفرض لسيطرة على كل نعاج الحظيرة.

يتباعدان، يمسك كل منهما بركن، وكالبرق ينطلقان، تقرقع قرونهما من شدة الاصطدام، ثم يعاودان.

ينهكان، لكن قوة ما تسري فيهما من جديد، وعندما تدلى قرن أحدهما انطلق منزويًا تكسو الدماء جبينه إلى أقصى ركن في الحظيرة، بينما أطلق الآخر صوتًا خشنًا متقطعًا أكد من خلاله فحولته على كل النعاج.

***

مكالمة تليفونية أعرف أنها تخصنى لما رأيت رئيسى فى العمل يهب واقفًا يتلقاها.. إنها من مكتب «سموه» يشير لى فأقترب قبالته، وبتكرار رتيب لكلمات تؤكد السمع والطاعة يضع السماعة مرتعشًا.

يستجمع بعضه المبعثر، وبغضب مضطرب يخاطبنى:

- كيف لك أن تطلب ذلك ولا تخبرنى؟!، أبرر - ربما ببعض ثقة - كيف لجأت إليه دون مراجعته، فيمضى قائلاً: موعدك مع «جلالته» فى التاسعة، وبعدها تأتى لنبحث تلك المسألة.

يبلع المنهزم صوته داخل جوفه، ويؤقلم نفسه مع واقعه!

***

فى المساء أعاد مكتب (عظمته) الاتصال، لابد من الحضور بحلة داكنة، الحذاء، الشعر، الذقن، لابد من تقليم الأظافر، والألوان القليلة يجب أن تكون متناسقة!

يؤكدون على الموعد، وبأنه لا داعى لاصطحاب أى أجهزة، فما تريده وأكثر يتوافر عندنا.

أعجل بما يطلبون، وأعلم هناك أن موعدى مع (فخامته) فى الواحدة، وأنهم ما أتوا بى مبكرًا إلا لمراجعة «بروتوكول» المقابلة معى، عند أى مسافة أتوقف قبالته، كيف أمد يدى للسلام، ثم كيف أعود للخلف وأجلس فى الكرسى المخصص لى، كيف يكون وضع ساقى فى أثناء الجلوس، وإلى أى مدى أرتفع بناظرى وأنا فى حضرة «قداسته»!

يعودون يؤكدون: إياك وتقبيله، يشددون فى مراجعة الأسئلة، يحذفونها إلا واحدًا، وتطوعوا هم بكتابة باقى الأسئلة.

ينادى المنادى أن (فضيلته) قادم، أهب مذعورًا، يسبق دخوله

مـجـمـوعـة من مـوظفى مكتبـه فى حلل لا ترقى إلى مـسـتوى أدناهـا حلتى.

يتقـدم بخطى ثابتـة، يقف مـشـبكًا يديه، أتقدم عند الخط المرسوم لى..!

- ترى.. هل قنع المكسور بحـاله..!؟ وهل إذا اختفى غريمه يمكن أن تقوم له قـائمـة..!؟، وإذا كان قـد تـعافى وامتلك بعضًا من قوة فلماذا لم يجربها، ومتى يجربها مع غريمه..!؟

أنتبه على صوته مرحبًا ومرتبكًا، أمد يدى فيشير لى، وأعود بظهرى إلى مقعدى.

الأجهزة بطاقمها الفنى تفوح منها حداثتها، وأوراق مذهبـة الأطراف لا أدرى لماذا كوموها هكذا أمامى!

أمسك بالميكروفون وأقربه من شفتى..

-ربما يكون المهزوم قد استجمع فى تلك اللحظة قوته، وربما استطاع الآن أن ينازله.

يلامس الميكروفـون شـفـتى، أنتـبـه، وأعلم أننى فـعـلاً فى حضرته، وبأننى لابد أن أبدأ حوارى معه..، تضاء الأنوار، أنظر للكاميرا وأهبط برأسى قليلاً أمام الميكروفون، تنفرج شفتاى، يتحرك لسانى، تخرج من داخلى مـأمـأة عميقة مبتورة، تتلوها مـأمآت رفيعة ناعمة.. أستعذب الصوت، أصيح، وكلما صحت طالت آذانهم، أعود فأصيح وكلما فعلت انزوى واحد منهم، أنظر حولى أكتشف أنه لم يبق إلا أنا، أعود أصيح فيأتينى نهيقهم منغمًا عبر الفضاء.

---

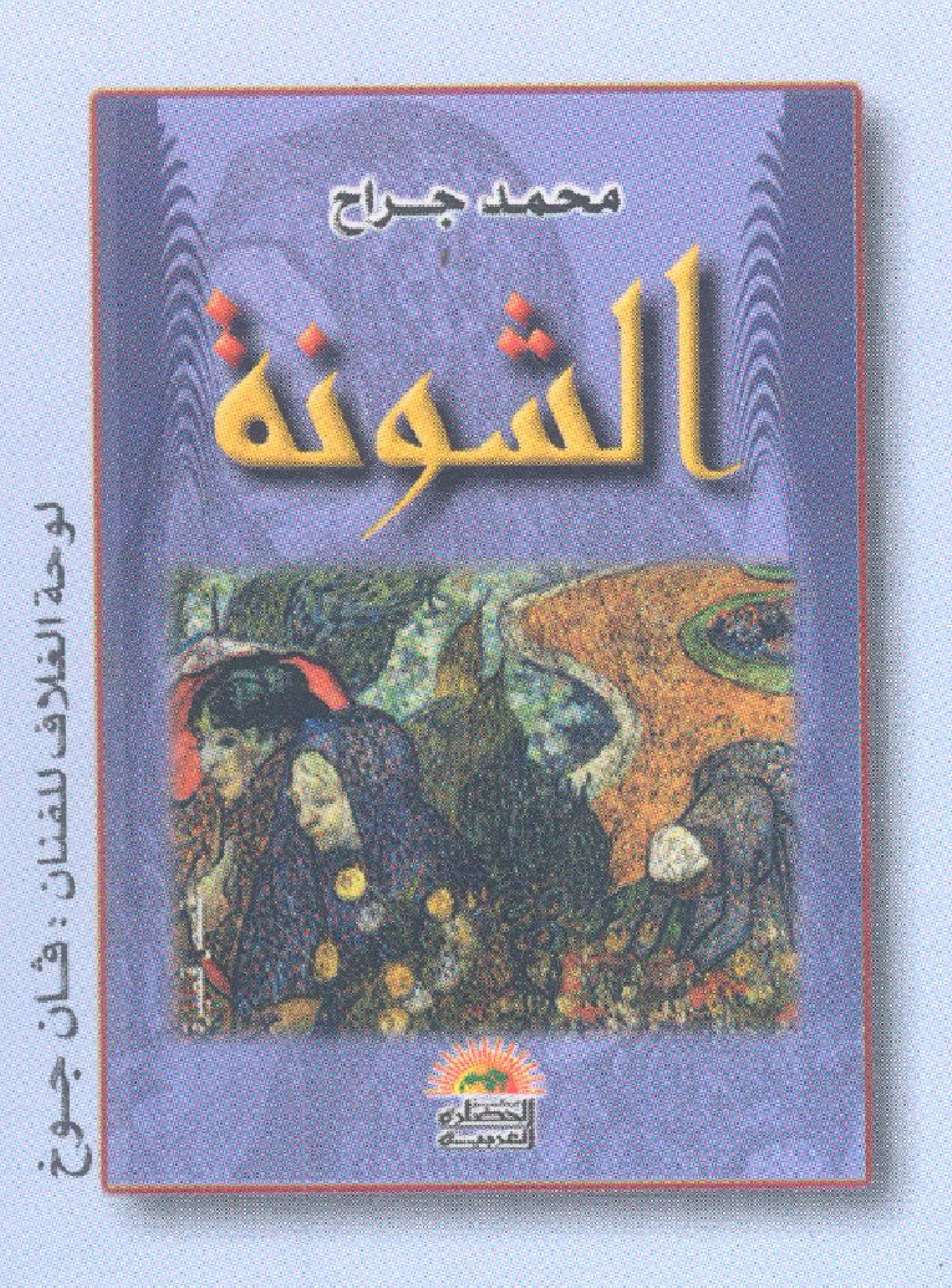
* ٢٠٠٣م .

الفهرس

المـــؤلف

* **محمد جرّاح .**
* صوت متميّز ، وعقل متفتّح .
* يحاورك بثقافته ويقرؤك بخبرته على أثير إذاعة الشباب والرياضة
* بدأ الكتابة مبكّرًا ، وعرف النشر المتقطع كذلك .
* عمل بعد تخرُّجه عام ١٩٨٢م بالصحافة ، ثم جمع بينها وبين عمله بالآثار ، إلى أن التحق بالعمل مذيعًا بالإذاعة عام ١٩٨٤م ، فجار الإعلام على الإبداع كثيراً ، لكنه ورغم ذلك استطاع أن يفلت من تلك المعضلة حى ولو لدقائق يطلق فيها قلمه ليُفصح عن مخزون تجاربه .
* يقدِّم الجرّاح من خلال تلك المجموعة بعضًا من قصصه التي تمثُّل مراحل إبداعه منذ البداية وحتى الآن ، ليكون شاهداً على مسيرته مع الأدب والقصة القصيرة ..





بأصداء متناغمة ترددت عبر فضاءات الماء الممتد بلا نهاية ترانيم النورس، وأناشيد طيور بحرية أخرى، ولما بدأ يفيق من تفكيره تسربت إلى أذنيه أصوات الطيور مصحوبة بخلفيات الماء الهادر، والموج المتسابق للموت تحت أقدام الصخور...

تزايدت حدة الأصوات فى أذنيه، هب من جلسته واقفًا، جابت عيناه الشاطئ الطويل يمنة ويسرة.. كان وحيدًا إلا من أنوار بعيدة تعكسها مياه البحر المالحة.

